الجمهوريـة الجزائـريـة الديمقراطيـة الشعبيـة
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

تجليات المدينة في شعر بدر شاكر السياب
قصيدة "مدينة بلا مطر" نموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي

إعداد الطالبتين:
*- نصيـــرة العـــايب
*- لميـــــاء بلحنـــاش

إشراف الأستاذ:
سليـــم بوعجـــاجة

السنة الجامعية: **2014/2013**

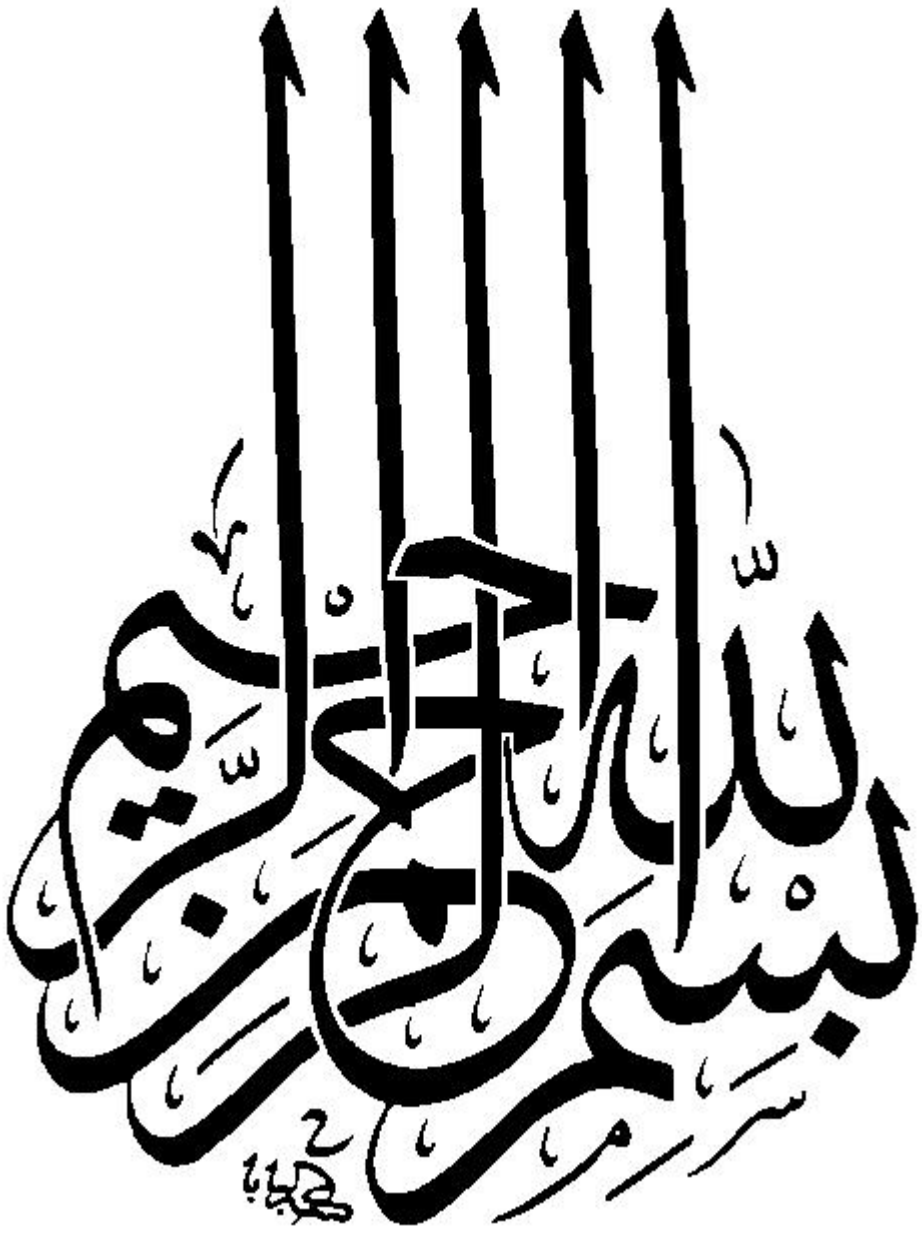
بسم الله الرحمن الرحيم

((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))

العلق 1ـ5

إهداء

إلى من قال فيهما جل جلاله "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ وَالرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا"

إلى أجمل شيء في الوجود إلى من تعبت لأجل إسعادي وسهرت لأجل راحتي، إلى من هي أحن إلى على نفسي، إلى نبع الحنان وحضن الأمان إلى من ينبض قلبها بالحنان إلى صانعة الأنس والحياة، إلى من جعلتني أرى الدنيا من خلال عينيها إلى شمعة النور في ظلمات أيامي، يا عطرا يفوح شذاه ويا زهرة يشم رائحته الأنبياء ويا أريجا يتلألأ في وجوه الأباء، يا من برضاك التوفيق وتحت قدميك الجنان، أهديك سلاما لو رفع إلى السماء لكان قمرا منيرا ولو نزل إلى الأرض لكساها سندسا وحريرا إليك يا أغلى وأروع أم في الحياة أمي "حورية" أطال الله في عمرها.

إلى قدوتي الأولى ونبراسي الذي ينير دربي، إلى من أخذ بيدي وأوصلني شاطئ الأمان إلى من علمني كيف أصمد أمام أمواج البحار الثائرة، إلى من أشبعني بدفء حنانه وحبه، إلى سندي الذي أقف على قدمي مرتكزة عليه، إلى من احتواني بقلبه الطيب وأزال بابتسامته الحنون همومي، إليك يا أبي العزيز أهديك باقات حبي واحترامي وعبارات نابعة من قلبي، أبي الغالي "عمار" أطال الله في عمره.

إلى النجمة الساطعة في سماء حياتي وأحلى وردة في حديقة قلبي، أختي "نسمة"

إلى من جمعتني بها أيام الدراسة وتقاسمت معها العمل "لمياء"

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي هذه.

نصيرة

إهداء

إنه من الصعب أن تتحول الأحاسيس إلى مجرد قطرات حبر، ومن الصعب أيضا أن أزرع أحاسيسي على ورقة خرساء، اهدي ينابيع سنين من العمل والجد والمثابرة، سنين كلها تعب وفيها ازددت قوة لبلوغ هدف منشود وتحقيق أمل يشدني إلى حصاد وأجني ثمار أريدها هدية يتغدى عليها كل من هو جزء مني.

إلى أحبة كثر يسرى حبهم في عروقي، لا أعلم أيهم أقرب إلي:

- إلى من جعل الله الجنة تحت أقدامها، إلى واحة الحب الضياء في صحرائي، إلى سر صفائي وهنائي إلى من بعث في روحي المثابرة وحب العلم، إليك يا من لا توافيك حقك كلمات الكون فإن تنوعت ألفاظه وإن اختلفت إلى التي لو فرشت لها الأرض وردا وأشعلت لها أصابعي شموعا لما وفيتها حقها إلى أمي الغالية أطال الله عمرها.
- إلى تاج بيتنا والنجم الساطع في سمائها للرجل الصامد صاحب القلب الطيب الحنون مصدر سعادتي وفخري وقوتي ومثال قدوتي في الحياة إلى الذي جعل نفسه شمعة تحترق من أجل أن تنير لنا الحياة إليك يا رمز الرجولة أبي العزيز أطال الله في عمره.
- إلى من علموني علم الحياة، إلى من أظهروا لي أجمل ما في بالحياة، إلى القلوب الطاهرة والنفوس البريئة، إلى رياحين حياتي إخوتي "رياض، فيصل، عصام، محمد، فريد، خالد، فاتن، سارة" حفظهم الله وسدد خطاهم.
- إلى اللاتي كُنّ لي عونا في مذكرتي هذه، زوجات إخوتي "ليندة، نصيرة، جويدة" أدامهم الله زوجات صالحات في خدمة أبنائهم
- إلى صانعي البهجة، وعصافير الجنة، وملائكة الرحمان، كثر حبهم في قلبي: اسامة، أيمن، سراج الدين، وائل، أيهم، سلسبيل، سندس ومرام حفظهم الله ورعاهم.
- إلى من امتزجت روحي بروحها وتصافح قلبي بقلبها جوهرتي دربي وحيائي"نادية، زينب"
- إلى من جمعتني بها أيام الجامعة وتقاسمت معها الغرفة "نصيرة"
- إلى بكل من عرفت وأحببت

لميـــــاء

شكر وتقدير

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

الشكر أولا وأخيرا لله سبحانه وتعالى الذي منحنا القدرة على إتمام هذا العمل فله الحمد والشكر

نتقدم بأسمى عبارات الشكر وعظيم آيات التقدير إلى الذي تفضل علينا بالإشراف، وكان عونا لنا طيلة مسيرة بحثنا هذا، الأستاذ المحترم:

﴿سليم بوعجاجة﴾

كما نتقدم بعبارات التقدير والاحترام إلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد على إتمام هذه المذكرة، خاصة الأستاذ:

﴿طارق زيناي﴾.

خطـــة الـدراسة

خطـــة الـــدراسة

مقدمـــة

الفصل الأول: المدينة في الشعر العربي المعاصر

1- الشاعر والمدينة.

2- ثنائية القرية والمدينة.

3- الوجود الحسي للمدينة في الشعر العربي المعاصر.

4- الاغتراب والحزن وعلاقتهما بالمدينة في الشعر العربي المعاصر.

5- المدينة والحزن في الشعر العربي المعاصر.

الفصل الثاني: تجليات المدينة في شعر بدر شاكر السياب

1- بدر شاكر السياب بين القرية والمدينة

أ- التعريف بالشاعر بدر شاكر السياب

ب- السياب بين القرية والمدينة

2- صورة المدينة عند بدر شاكر السياب

3- القرية كبديل عن المدينة

الفصل الثالث: دراسة فنية لقصيدة مدينة بلا مطر

قصيدة مدينة بلا مطر

1- دراسة تحليلية للقصيدة

2- التوظيف الرمزي والأسطوري في القصيدة

أ- الرمز

ب- الاسطورة

3- اللغة الشعرية

4-الصورة الشعرية

5-الموسيقى الشعرية

أ- الموسيقى الداخلية

ب- الموسيقى الخارجية

6-الجوانب الفنية للقصيدة

أ- الافكار

ب- العاطفة

ج-الألفاظ

د- الأساليب

هـ- النمط

خـــاتمـــــة

مقـــــــدمة

مقدمـــة:

دأب الإنسان من أجل البقاء في جميع الأطوار التي مر بها ، وفي مرحلة المدنية ساعدته العوامل الاقتصادية على نشأة عدد من المدن المحصنة ، قامت أساسا على نوع من الصناعة أدت بدورها إلى ظهور المدينة الضخمة ، كتحقيق مشخص تتوافر فيه الطمأنينة والتواصل، وكانت هذه المدينة لغة الإنسان في حربه ضد الطبيعة وأخطارها التي تهدد حياته، ثم أصبحت المدينة فيما بعد مركز ثقل إنساني، فاستقطبت جهد الإنسان واستدرجته، بدأت مفاتنها وشرورها الأسرة تأخذ شكل الغواية التي يصعب مقاومتها، مع أنها كانت مفتوحة على الريف، حيث لم تملك من الخصائص ما يحفظ لها استقلالها، وبالتأمل في تاريخ المدن لا نجد موقفا عدائيا منها، ولا خصومة بين سكانها ومن نزحوا إليها. وهذه سمة لمدنيات عديدة، كما يشير إلى ذلك الدارسون.

وتطورت مدينة القرن العشرين شكل حاد صعب معه تكيف النازحين إليها لاسيما الشعراء منهم، ولم تنجح الانتصارات العلمية في تحقيق الآمال المعلقة عليها من خلق عالم أفضل يتكئ على العلوم وسيطرت الفلسفات المثالية ،وعلى العكس من المتوقع صاحبت هذه الانتصارات العلمية صور مأسوية ،من حرية الإنسان، واستغلال لموارد الشعوب المغلوبة على أمرها وما تمخضت الانتصارات من حروب دمرت أكثر مما أنجزت هنا وهناك، ما جعل شاعر القرن العشرين يتخذ موقفا معاديا من المدينة ورموزها.

إن المدينة قد اتخذت عند هؤلاء الشعراء مكان الحياة عند من سبقهم من الشعراء الرومانسيين فقد كان الشاعر الرومانسي يشكو غربة في الحياة دون أن يخصصها، فأصبح هؤلاء الشعراء يرمزون بالمدينة فيما يبدو إلى هذه الغربة الرومانسية القديمة. وعلى نحو ما مثلت المدينة عنصر إلهام لعديد الكتاب والشعراء من جانب، ومن جانب آخر كانت شكلت عنصر ضجر وملل واغتراب لقاء ما تمور به من صخب وضوضاء وقسوة فقد كانت

موضع اهتمام قطاع من دارسي الأدب لما حملته المدينة من قيم عندما حضرت على أنحاء متعددة في المتون الشعرية العربية المختلفة.

كان لبدر شاكر السياب علاقة خاصة مع المدينة طبعت أشعاره انطلاقا من تحولات تاريخية عايشها الشاعر في بغداد.

من أجل ذلك اخترنا البحث في موضوع تجليات المدينة في شعر بدر شاكر السياب الذي يعدّ الرائد في حركة الشعر الحر، فهو من الرعيل الأول الذين نظموا في هذا الفن، والسياب من الشعراء الذين قاسوا الغربة والحنين إلى وطنهم فهو كره وحقد على المدينة بعكس حبه وتعلّقه بالريف أي قريته "جيكور" والحقيقة أن هذا الموضوع في حد ذاته قد أثار إعجابنا ذلك أننا كنا دائما نقارن بين الحياة في الريف والمدينة.

وقد قسمنا هذا البحث إلى مقدمة وجانب نظري تضمن فصلين وجانب تطبيقي وخاتمة.

أما الجانب النظري فقسمناه إلى فصلين، الفصل الأول تعرضنا فيه لأهم الشعراء المعاصرين الذين تطرقوا لموضوع المدينة فتناولنا فيه أيضا الشاعر والمدينة، وبعدها تطرقنا إلى ثنائية القرية والمدينة ثم الوجود الحسي للمدينة في الشعر العربي المعاصر، وبعدها قدمنا ملامح الاغتراب والحزن وعلاقتهما بالمدينة في الشعر العربي المعاصر، وأخيرا تحدثنا عن المدينة والحزن في الشعر العربي المعاصر، أما الفصل الثاني فقد خصصناه لواحد من رواد الشعر العربي المعاصر وهو "بدر شاكر السياب" فتناولنا التعريف به، ثم السياب بين القرية والمدينة وبعدها صورة المدينة عند الشاعر واختياره القرية كبديل عن المدينة أما الجانب التطبيقي فتناولنا فيه دراسة فنية لقصيدة "مدينة بلا مطر" للسياب وفي الأخير خاتمة تضمنت نتائج البحث لنتمم بها بحثنا، هذا ولقد اتبعنا المنهج التحليلي الوصفي في إنجاز هذا البحث الأمر الذي مكننا من الوقوف عند أهم محطات الشاعر المعاصر في رحلته عبر الحنين إلى الماضي والتطلع إلى المستقبل.

ولقد واجهتنا في البداية صعوبات عديدة ربما هذا راجع لأننا لأول مرة نقوم بهذا العمل، أو لقلة المصادر والمراجع، خاصة وأن الموضوع يعد جديدا بالنسبة لنا، فكنا ننتقل بين المكتبات لعل وعسى أن نجد كتبا تناولت ولو جانبا صغيرا من موضوعنا، ألا وأننا بمعونة الله سبحانه وتعالى، ومعونة أستاذنا المشرف الذي دلنا على أهم المصادر والمراجع التي تطرقت إلى هذا الموضوع كما أنه لم يبخل علينا بكتبه الخاصة فأتممنا مذكرتنا هذه.

وفي الأخير لا نحسبنا أننا قد وفقنا في مذكرتنا هذه ولكن حسبنا أننا حاولنا.

الفصـــل الأول

الفصل الأول: المدينة في الشعر العربي المعاصر

1- الشاعر والمدينة.

2- ثنائية القرية والمدينة.

3- الوجود الحسي للمدينة في الشعر العربي المعاصر.

4- الاغتراب والحزن وعلاقتهما بالمدينة في الشعر العربي المعاصر.

5- المدينة والحزن في الشعر العربي المعاصر.

1. الشاعـــــر والمدينـــــة:

يعدّ حضور المدينة ملمحا بارزا في المتن الشعري العربي المعاصر ولم تكن هذه الظاهرة في صورتها المجرّدة ظاهرة جديدة، فكذلك كان شأن الشعر في كل عصوره.

فكانت هناك دائما موضوعات مشتركة بين معظم الشعراء، أمّا ما يميز الظاهرة في شعرنا المعاصر فهو أن الموضوعات المشتركة فيه موضوعات عصرية وجديدة كموضوع المدينة، وفي بعض الأحيان موضوعات عصرية وإن لم تكن جديدة، كموضوع الموت، وفي هذه الحالة الأخيرة تكون الرؤية ومنهج التناول والتفسير هي الأشياء العصرية الجديدة.

والمتصفح لدواوين شعرنا المعاصر يلاحظ أن كثيرا من الشعراء قد تناولوا في قصيدة أو أكثر موضوع المدينة وشغل حيزا غير يسير من أشعارهم أمثال أحمد إبراهيم أبو سنة، في ديوانه "قلبي وغزالة الثوب الأزرق" إلى ديوان" أحلام الفارس القديم "لصلاح عبد الصبور"، وأحمد عبد المعطي حجازي في ديوانه "مدينة بلا قلب" وبدر شاكر السياب الذي كتب في ديوانه مجموعة من القصائد منها "مدينة السندباد، المومس العمياء"، أفياء جيكور"، و"جيكور والمدينة"، المسيح بعد الصلب، ومدينة بلا مطر هذه الأخيرة تغنينا عن الحديث عنها لأنها أدلّ على الموضوع.

وفي هذه المسألة تلوح لنا مسألتان: الأولى تتعلق بمصدر هذا الاهتمام بموضوع المدينة، والثانية تتعلق بمشكلة جمود الموضوعات الشعرية[1]، أما فيما يخص هذا الاهتمام فإنه يظن أن الدافع الأول إليه دافع خارجي جاء نتيجة التأثر بنماذج من الشعر العربي والقصيدة "الأرض والخراب" لإليوث على وجه الخصوص، بما يتسع فيها من نقمة على وجه الحضارة الحديثة وما أحدثته من تمزّق للنفس الانسانية وللعلاقات التي تربط بين الناس، وقد

(1) د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1981، ص 325، 326.

ظهر هذا التأثير مبكّرا، أي منذ أوائل حركة التجديد الأخيرة ثم شاع وكثر بين الشعراء سواء منهم من قرأ لإليوث أو لأمثاله.

على أنه مهما قيل في شأن هذا التأثر فلا شك في أن استجابة الشعراء المعاصرين لهذا الموضوع تتجاوز حدود التأثير، فلو لم يكن لهذا الموضوع وقعا معينا في نفوسهم، ولو لم يكن لحضوره المميز في وقع الحياة التي يمارسونها ما ظهر بهذه العناية الفائقة، وهكذا فظروف الحياة التي يمارسونها والإطار الحضاري الذي يعيش فيه شعراؤنا المعاصرون،قد خلق أجواء مناسبة للإبداع .كما أن واقع التجربة الذي مر بها هؤلاء الشعراء هي التي ارتفعت بهذا الموضوع إلى مستوى الاهتمام. يناقش الدكتور "إحسان عباس" موضوع الزمن في شعر السياب فيقول: عاش طوال حياته يحلم بالطفولة والعودة إلى الماضي ويجد في هذا الماضي عزاء عن الحاضر، بل انه يزخرف الماضي لأن في ذلك التمويه تعويضا عن قسوة الحاضر[1]، فالظروف التي يعيشها الشاعر المعاصر كانت دافعا قويا لتناولهم لهذا الموضوع.

أما فيما يخص الخوف من جمود موضوعات الشعر نتيجة لاهتمام كل الشعراء أو معظمهم بنفس الموضوعات فإن المسألة في الشعر لم تكن في يوم من الأيام مسألة موضوع وإنما هي مسألة تجربة شعرية في المكان الأول، فليس المهم أن يكتب كل شاعر قصيدة أو أكثر من ذلك عن المدينة ولكن المهم أن تكشف خبايا كل قصيدة عن جانب من جوانب هذا الموضوع بحيث تكون لكل قصيدة خصوصيتها وتفردها. وخصوصية القصيدة وتفردها لا ينشأ إلا من خصوصية التجربة والرؤية الشعرية.[2]

(1) أنظر د. بشير العسوي، دراسات في الأدب المعاصر، دار الفكر العربي، بيروت، 1998، ص 132.

(2) د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 127.

2. ثنائية القرية والمدينة:

يعيش الإنسان في المجتمع القروي حياة بسيطة و يعيش من حوله مزارعون مستقرون يخططون، ينظمون أعمالهم متكيفين مع قوانين الطبيعة، آخذون في اعتبارهم مواسم الحصاد، طموحاتهم محدودة مقصورة على الضروري ، يتجاوزون خيبة الأمل، ويستخلصون منها حكمة عملية تخفف عنهم المتاعب، العمل قاسي أجل، لكن الغلة تكفي لإغنائهم بل لحمايتهم من المجاعة، ليسوا في الغالب شعبا كئيبا هم فيه الغالب شعراء مطمئنون لأنهم لا يأملون في حياة أفضل ويجهلون ما نسميه الحضارة الغربية "اللارضا" لا يعانون بعيدا عن التوترات النفسية الناجمة عن الاحتكاك بالآخرين، وكل هذا نقيض لخصائص المجتمع المدني، الذي يبرز الفردية، السرعة، التحرك الاجتماعي وعدم التجانس، تمزق العلاقات الروحية من المجتمع، نزوح الشاعر الريفي إلى المدينة يحمل قريته دائما بين جوانحه، يجتاحه الحنين إلى قريته من حين إلى آخر وإذا كان ضرباً من الحنين إلى الوطن يحمل معاني القلق والضيق وعدم الارتياح للمدينة، وما يلقاه الشاعر الريفي في مجتمعنا من صراعات شتى فيهرب الشاعر ولو في الخيال إلى قريته لسماتها الانسانية، وتظل القرية واحة يضيء إليها في الوهج والهجير والقحل المدني وحتى ولو كانت حياة الريف بطيئة الإيقاع.[1]

ولهذا الحنين عند الشعراء مظهر من مظاهر الرومانسية التي خلفت بعض سحاباتها، فشعراؤنا إن كانوا ينتسبون لغير الرومانسية لم يتخلصوا كلية من بعض سماتها فالشاعر "صلاح عبد الصبور" يصنع حالة من الارتداد إلى ذكريات شبابية في القرية حين كانت القرية له وجاء من فقدان نفسه في المدينة.[2]

(1) مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر الكويت،1995، ص 31، 32.

(2) المرجع نفسه، ص 38.

فإذا كان النزوح من الريف إلى المدينة طبيعيا في بعض المراحل من أجل العلم لأن الجامعات مركزة في المدن الكبرى، ولم يبدأ إنشاء الجامعات الإقليمية إلا في وقت متأخر، ومن أجل الرزق فلا شك أن مجالات العمل في المدن الكبرى أكثر انفتاحا والريف يعد ذلك محدودا بقطعة أرض زراعية مقسمة بين أفراده، ولكن المدينة قادرة على امتصاص نازحين جدد كلما أنشأت مصانع أو شركات وتتسع بالضرورة حدود المدينة وتقوم حركة عمرانية يحتاج سكانها إلى خدمات وإلى أياد عاملة وهكذا..[1]

فالشاعر "صلاح عبد الصبور" و"البياتي" و"أحمد عبد المعطي حجازي" و"السياب" وغيرهم نزحوا من القرية إلى المدينة وقد صوروا أحاسيسهم وهم راحلون من قريتهم ومواطنهم الأصلية إلى المدينة، "فصلاح عبد الصبور في ديوانه الأول "الناس في بلادي" وعلى وجه التحديد في قصيدته "الملك لك" ينفذ من ظلال متاعبه التي جرتها عليه خبرته كي يجيب على تساؤل طرحه على لسان واحدته حتى لا تعجب من تناقض مرارته مع فيض السرور والحب في عينيه والسبب هذا الأمان معه من الريف وذكرياته واصل جدل حياته واحتفظ به ليلجأ إليه كلما خبرته حياة المدينة:

صبايا البعيد

أحن إليه لألعابه

لأوقاته الحلوة الساحرة

فبت غريب...

إلى صحبتي إلى إخوتي[2]

(1) ماهر حسن فهمي،الحنين و الغربة في الشعر العربي الحديث ،مطبعة الجيلاوي،معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، 1970ص153.

(2) مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر العربي المعاصر،الكويت،1995،ص 43.

تأخذ القرية بالنسبة له "البلاد – الأصل"طبيعة عالم النعيم والثورة والسعادة، بعكس المدينة واقع الجحيم وبحر العدم، الذي ضاع في السندباد وامتلأ حزناً مطلقاً:

– حزن تمدد في المدينة

كاللص في جوف السكينة

كالأفعوان بلا فحيح

– والحزن يولد في المساء لأنه حزن ضرير

حزن طويل كالطريق من الجحيم إلى الجحيم[1]

فالمدينة عنده ألم وفقر وغربة وحزن ونهاية الأشياء، إنها الحياة المعاصرة التي حملتها المدينة الغربية، والتي ثار عليها العربي ونقم منها، بعد خبرة ومعاناة، لكونها تجربة مفرغة من القيم الإنسانية تتلبس فيها الحضارة بالهمجية وزمانها:

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتولا من قاتله ومتى قتله

رؤوس الحيوانات على جثث الناس.

فعبد الصبور لم يهرب من المدينة التي ألهبته عذابا وأحزانا، بل عشقها في حلولية صوفية، واستوعب قلبه الكبير أوجاعها الاجتماعية والسياسية، واحتضنها كالحبيبة.

لكنني أحببتها... أحببت هذه المدينة

ما أضيق الفراغ بين الحب والإشفاق والضغينة

(1) د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي –الجزائر نموذجا 1925، 1962–، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص50.

أحببت أن أعيش بين لحمها وجلدها

لكنني أحس نبضها العليل في عروقها الدفينة.

فالخلاص من المدينة لا يتحدد عنده إلا بالخروج منها إلى القرية، بل بالتأمل والانتظار، الالتحام والشهادة فيها للخروج من المدينة الواقعية (التاريخية) إلى المدينة الحلمية (الحضارية)، هي النبوءة المتلبسة بالشك والخوف، هل هي وهم أو حق؟:

– إن عذاب رحلتي طهارتي

والموت في الصحراء بعثي المقيم

– أواه يا مدينتي المنيرة

مدينة الرؤى التي تشرب ضوءاً

مدينة الرؤى التي تمج ضوءاً

هل أنت وهم واهم تقطعت به السبل

أم أنت حق؟

أم أنت حق؟)[1]

كما تناول الشاعر" أمل دنقل" في قصيدته "مقتل العمر"الصورة الكبيرة لمصرع الريفي الذي ينزح الى المدينة والقمر لا شك مفردة ريفية فا الشاعر لا ينظر اليها من خلال وجودها الثابت في الخارج و لكن من خلال تحقيق الوجود ،و القمر كظاهرة ريفية له تفسيراته في الحياة القروية كما انه ظاهرة جمالية في مخيلة العشاق و الشعراء من خلال الألفة بين الشاعر الريفي و القمر تتفجر كارثه الضياع في انهمار المدينة فيقول

(1) د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي –الجزائر نموذجا 1925، 1962–، ص 62

و خرجت من باب المدينة للريف

يا أبناء قريتنا أبوكم مات

قد قتلته أبناء المدينة

ذرفوا عليه دموع إخوة يوسف[1]

كما تناول الشاعر "أحمد عبد المعطي حجازي عن حنينه إلى الريف والحياة الوادعة الطيبة المنسجمة مع بعضها البعض، وإن قلقه في هذه المدينة الواسعة الممزقة... وهو بدافع هذا القلق يحن إلى الهدوء والاستقرار في رحاب الريف كما يفعل "إليوت" على أنه لم يتبين وجهة نظر"إليوث" في الدعوة إلى نبد الحضارة الصناعية، وما يتصل بهذه الدعوة من إيمان ديني، ودعوة إلى سيادة هذا الإيمان على العقل والروح والحياة المادية كما يفعل إليوث من أكثر ما لقيه بعد ذلك من هموم وأحزان في الوقت الذي يتعذر عليه إيجاد علاقة بينه وبين المدينة، فإنه يحدد هذه العلاقة قوية بينه وبين الريف ابتداءً من قبر أبيه حتى داره الصغيرة التي يملكها هنا[2]:

وأنا ابن الريف

ودّعت أهلي وانتجعت هنا

لكن قبر أبي بقريتنا هناك يحضنه الصبار

مازالت لنا في الأفق دار[3]

(1)مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص 50.

(2)مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص 50.

(3)مقدمة ديوان "مدينة بلا قلب"، ديوان الحجازي، ص 60.

ولا تتحدد علاقة المدينة بالريف لدى "عبد الوهاب البياتي"، بما هو صراع بين الطبيعة والصناعة، الماضي والحاضر إنما بين الإنسانية الظالمة الفاسدة والإنسانية العادلة الخيّرة، فالمكان لا يطلب لذاته، بل للقيم التي يحملها وآثارها على حياة الإنسان. فكلاهما قد يكون فجر ولادة وسعادة وكرامة، أو مصدر عقم وشفاء ومهانة: وعندما تعرّت المدينة

رأيت في عيونها الحزينة:

مبادل الساسة واللصوص والبيادق،

رأيت في عيونها: المشانق

تنصب، والسجون والمحارق

والحزن والضياع والدخان[1]

ليست المدينة وحدها، مكانا عدائيا للإنسان بل إن القرية أيضا مكانا للظلم والضياع والحزن والموت: – قرانا على السفح كما تزل

مروّعة، بانتظار الغمام

وفي شرقنا قرية لم تزل

يباع فيها الناس مثل السوام

سنتين ما أقسى الحياة

وأبشع الليل الطويل

والموت في الريف العراقي الحزين

من فقراء المدن المرضى ومن حثالة الأموات في الأرياف[2]

(1)د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائر نموذجا (1925، 1962)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 50.

(2)د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائر نموذجا (1925، 1962)، ص 50.

مدينة "البياتي" عالم مشحون بالحزن والسأم والعذاب والتشوه، متاه الوحشة والمنفى والسجن والجنون، موطن الرداءة والرذيلة والانخلاع النفسي والوجداني، إنها آفة الحياة المستوردة من الغرب، أي أن الشرق برى في "الأصل"، ومن ثم يمكنه الشفاء والتطهر التحرر من خطيئة "الآخر":

مدينة شامخة

الأسوار

شامخة كالنار

كالإعصار

في أوجه اللصوص

لصوص أوروبا من التجار،

من مجرمي الحروب

وشاربي الدم[1]

كانت ثورة البياتي من أجل الكرامة والحرية والاكتفاء والسعادة، ثورة على المدينة والقرية معًا، وضد التشوه والاستلاب والفساد والقهر، ثورة واقعية تأتى من المستقبل (المدينة) مع التمسك بالهوية والأصالة (القرية)، ثورة وطنية تأخذ فيها بغداد رمز المدينة الشعرية المطلقة:

– بغداد يا أغرودة المنتهى

ويا عروس الأعصر الخالية

– البحث عن خريطة العالم عن مدينة مسحورة دفينة

(1)المرجع السابق،ص 52 .

بغداد يا مدينة النجوم.[1]

متى أرى سماءك الزرقاء؟

و أنت يا مدينة النخيل و البكاء

متى أرى شارعك الطويل ؟

تغسله الأمطار

متى أرى شعبي –يا مدينة النجوم

يصنع الثورات.

أما المدينة عند "خليل حاوي" فهي مكان مفرغ من الروح، حضارة موبوءة، موطن السأم والمرض، "طاحونة حمراء"، "جثة وفاجعة"، وبؤرة للإنسحاق الروحي، والانقطاع عن الأصول والضياع في حمى الأشياء.

عرف "حاوي" الحضارة الغربية في مصادرها الأصلية وخبرَ الحداثة والمدينة في الشرق والغرب، وخلص إلى يقين أن هذا التمدّن شكل من أشكال التوحش الذي يبقى في حاجة إلى إنسانية روحانية، عرف في باريس "الفكر في عيد المساخر" وفي روما شهد "شهوة الكهّان في جمر المباخر"وفي لندن لم يجد غير الضياع في "ضباب الفحم في لغز التجارة". في المدينة الغربية "ضيق وخراب" لأنها "مغارات لعينة" و"حرباء" وذات أوجه متعددة، وليست بيروت سوى وجه آخر لها، فهي "ليل المقابر"، علة دعارة وزيف وخداع، نفايات وفراغ وغمم، جمر وكبريت وحمى ونار، وشهوة وعتمة وغصّة الحزن والموت.[2]

(1)المرجع السابق، ص 55.

(2)المرجع السابق، ص 63، 64.

فصورة المدينة عنده مرئية للحضارة، لكل المدن من جهة، ومرئية للحداثة العربية المفجوعة بخطيئة الولادة التاريخية المشوهة، إنها الأفق الداكن والصحراء المتكلسة:

نحن من بيروت مأساة وُلدنا

بوجوه وعقول مستعارة

تولد الفكرة في "السوق" بغيا

ثم تقضي العمر في نفق البكارة

ولقد كان لأدونيس (علي أحمد سعيد) رؤية متفرّدة للمدينة، حيث يقيم بينها وبين القرية مصالحة عضوية فذّة، فهما يتكاملان ولا يتناقضان، في ديوان "قصائد أولى"، ومن ثمَّ لا يعتني بتحرير القرية من هيمنة المدينة، بل يدعو إلى إضفاء روحه عليها.

لا تؤلف المدينة مع الريف حالة الصراع في المكان، بل في الزمان، بين الماضي والحاضر، فإذا كانت القرية طفولة وحنيناً وحلماً، فالمدينة تجديد وبعث ومستقبل، يتعمق الوعي بالمكان لدا أدونيس (لا يُؤْنْسِنَ" المدينة، فتصبح كالناس لقاني الألم وتتوجع من فراغ الضياع، الذي:

كان يطوف عبر المدينة

ويطرد منها السكينة

وعالمها في يديه، يشلّ يديه

ويسلب حتى جبينه[1]

ويسلب حتى طحينه

(1)المرجع السابق، ص 63، 64.

ويمضي وخلف خطاه تئن وتندب أبوابها الحزينة[1]

فهو لا يرفض المدينة لأنها مدينة، بل لأنها صورة للبلاد الفاجعة (إرم ذات العماد)، الوجه الآخر لصورة المدينة المفقودة والآتية من الأحلام والمرايا، لا من الذكريات والماضي. مدينة أدونيس هي العالم، الذي يتحول إلى "ذات"، فالوجود لا يدرك ولا يصنع خارج الشعر، فالمدينة مركز الأعماق حيث تتآلف كل الأشياء في حالة حميمية باطنية:

تدخلين في إيقاعي

تدهنين ثديك بكلماتي وتغرقين في قرارة الحب

حيث أرفع مدينتي وأحيا

– بين أصدافي وبيني قوس ألوان ومسافات

تستطيع المدن أن تعبر تحته وتستريح

هي عالم المرايا التي تعكس الدنيا، مثلما تنصهر في مخيلة الذّات –فهي المدينة– المرأة المومس– (الخطيئة)، والمدينة –الكلمة (الكلمة بوابة)، والمدينة –أرض الغرابة، والمدينة –الدهشة (مدينة العجب).

أدونيس شاعر مهووس بالمتخيل والمجرّد، يمجّد ذاته التي تصبح بؤرة للزمان الخالد "النهر"، الذي يلبس فيه كل شيء شكل المدينة "مدينة الجسد" السماء الثامنة"، "مدينة الرعب"، "المثل المستور"، "مدينة الحجر" "التحولات والهجرة" "مدائن الماء الغربية" "وجه لبحر" "مدينة للحزن" "الرأس والنهر" [2]

(1)المرجع السابق، ص 63، 64.

(2) د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي، ص 67.

كان انشغاله بالمدينة إلى حدّ الجنون، تعبيرا ذاتيا متميزا عن هاجس عن مدينة أخرى، تعوضه عن دمشق أو بيروت عن "المدينة الجثة" و"البلاد المقبرة" و"الزمن الضرير".

فراح يسعى "لأنسَنة" المدينة ويجعلها أكثر روحية، عبر استلهام الفطرة والحيوية القابعة في طفولة الشرق، أرض الأديان والأساطير، ولا سبيل إلى بلوغ ذلك سوى أن يتوسل باللغة الشعرية، الموغلة في المتخيل والذاتي والمجرد، وباعتماد الرؤية الحضارية في صيغتها الأنطولوجية أساسا:

كلمات الحنين وأقواسه الشريدة

كلمات هي الثورة...

اجترحنا

كل ما يهم المدينة أو يخلق المدينة[1]

3. الوجود الحسي للمدينة في الشعر العربي المعاصر:

لم يعد الشاعر المعاصر يتعامل مع المكان كشيء خارجي مستقل عن ذاته، بل أصبح هذا الوجود يشكل عنصراًهامًّا في بنية القصيدة الحديثة،... لذلك يبرز المكان في الشعر الحديث شيئًا معزولا "مفردًا أو تكونيا بلاستيكيا مجرّدًا... وإنما يبرز باعتباره ممارسة ونشاطا إنسانيين مرتبطين بالفعل البشري ويحملان من بين ما يحملانه مواقف وعواطف وخلجات ومشاعر وانفعالات الكائن الإنساني[2].

فتناول الشعراء الجانب المادي (الحسّي) للمدينة مهما بدا وصفيا في بعده الأول، فإنه في بعده الثاني إنما يعني صورة النفس الشاعرة في تفاعلها مع البيئة الجديدة، ذلك أن أبناء الريف الذين يدخلون المدينة بتغيير البيئة ومكوناتها التي بعثت في نفوسهم الإحساس

(1) المرجع السابق، ص 69.

(2)محمد شيراني،المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير،جامعة الإسكندرية،1988 ،ص210.

بالضيق والانسحاب، لا شك أن الإطار المادي للمدينة يختلف عنه كثيراً بما مضى، فالجدران العالية والأبنية الشاهقة والوسائل الآلية الكثيرة المنتشرة بها والأعداد الغفيرة من الناس الذين يعيشون فيها، كل هذه ظواهر مميزة للمدينة العصرية، وهي في الوقت نفسه عوامل حاسمة في تشكيل حساسية الناس ومشاعرهم.[1]

ولعل أهم ما يميز المدينة في صورتها المزيفة وذلك نتيجة البهرجة والزينة التي تكسوها، ولقد كتب "إبراهيم أبو سنة" قصيدة "رسائل إلى حبيبة غائبة" من ديوان "قلبي وغزالة الثوب الأزرق".

مدينتي من الصباح للمساء

تطل في المرآة

فنحن يا حبيبتي في حضارة المرآة.

في البيت في الصباح.

في الشارع الكبير

في السقف والحانوت والمقهى

وإن رأيت صاحبا يطل في عيون صاحبته

رأيته هناك معجنا بشاربه

ويعدل الياقات فوق كتفه وينصرف.

ففي حضارة المرآة يبرز التناقض بين الصورة الخارجية للمدينة وحقيقتها الداخلية فوراء تلك المظاهر الباهرة جراحات عميقة لجراحات المسحوقين لذلك فإن تلك الصورة على الرغم

(1)المرجع نفسه،ص55.

ما فيها من مغريات لم تعوض الشاعر عن حنينه للمحبة وبحثه عن الإنسان في هذه المدينة.

وكلهم يضم جرحه وينتظر

وكلهم يطالبون في العيون

ما ليس يعرفون

وليس نعرف المرآة

محبة الإنسان للإنسان

حنينه إلى الرفاق للخلال

حبيبتي أريد صاحبا فمن يحطم المرآة[1].

إن الشاعر يريد أن يضع الصورة المادية المزيفة في جانب وحقيقة العلاقات الاجتماعية الإنسانية المفقودة في جانب آخر وهو يدرك أن المظاهر لا يمكن أن تعوض ذلك الخلل في البناء الاجتماعي والاقتصادي في المدينة.

فمعظم الشعراء النازحين من القرية إلى المدينة، غير راضين عن الجمال الخارجي لا يتوافق مع الواقع الداخلي لها.

ولما كان الجدار صورة حزينة مادية من صور المدينة فقد استغل أحيانا ليؤدي وظيفة معنوية تتجاوز كونه هيكلا حجريا، وهذا التوظيف الرامز لدلالة الجدار يؤدي هدفا اجتماعيا يكشف عن أبعاد طبقية اقتصادية أحيانا أو يدل أحيانا على أبعاد نفسية[2]

يقول صلاح عبد الصبور:ولما دخلنا في مواكب البشر

(1) محمد إبراهيم أبو سنة،الأعمال الشعرية،مج1،ط1،مكتب مدبولي، القاهرة،1985 ،ص569 ،570.

(2) محمد شيراني ،المدينة في الشعر العربي المعاصر ،رسالة ماجستير،جامعة الإسكندرية،1988 ،ص69.

مسرعين الخطو نحو الخبز والمؤونة

المسرعين الخطو نحو الموت

في جبهة الطريق انتقلت ذراعها

في نصفه تباعدت فرقنا مستعجل يشد طفلته

في آخر الطريق تقت –ما استطعت– لو رأيت لون عينيها.

وحين تشارفنا درى الميدان غمغمت بدون صوت.

كأنها تسألني... من أنت؟[1]

هي صورة للحب في مدينة القرن العشرين، يحب امرأة من قبل أن يرى لون عينيها، فكان العجز على التواصل من أسباب الشقاء الذي عانى منه الشعراء في المدينة وبين جدرانها، هذه هي سمات المدينة كما يراها الشاعر، وكما تقع على العين لم يسجلها الشاعر، متغنيا بها وإنما تسري خلال تسجيله لها نبرة الأسى لها والنقمة عليها، كما قلنا وربما استشف الإنسان من خلال هذا التسجيل، كذلك أسى الشاعر لنفسه، حيث كتب عليه أن يعيش الحياة في إطار المدينة، ونقمته على هذه الصورة للحياة التي يبحث عن نفسه فيها فلا يجد نفسه، كما يقول "يوسف الخال": سوى شبح من الأشباح،ومهما يكن من أمر فإن هذا الأسى وهذه النقمة ليس سوى رواسب، فالموقف الرومانتيكي القديم، وإن لم يترك الشاعر المدينة نفسها ليتحدث عن أحلام القرية كما كان الشأن.[2]

(1) مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر العربي المعاصر،الكويت،1995 ص22.

(2)عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 337.

4. الاغتراب والحزن وعلاقتهما بالمدينة في الشعر العربي المعاصر:

يعد مصطلح "الاغتراب" من المصطلحات الشائعة في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، وهو يحمل معاني كثيرة تتصل بالحياة الاجتماعية والنفسية للفرد، من معانيه هذا الانسلاخ والعزلة عن المجتمع والعجز عن التلاؤم مع الآخرين،والاخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء، بل وأيضا الشعور بعدم مغزى الحياة... وغيرها من المعاني التي علقت به، وعلى الرغم من أن ظاهرة الاغتراب ظاهرة قديمة في الحياة الاجتماعية والثقافية القديمة إلا أنها لم تحظ بمثل هذا الاهتمام الذي نراه اليوم.[1]

فإذا عدنا إلى "ميسون بنت جدل" وهي شاعرة بدوية تزوجها معاوية بن أبي سفيان ونقلها إلى حضيرة الشام فثقلت عليها الغربة، فأكثرت من الحنين والوجد إلى حالتها الأولى وضاقت نفسها أكثر سرى عليها معاوية بن أبي سفيان فقالت:

لَبيت تخفق الأرواح فيه أحبّ إليّ من قصر منيف

وبكر يتبع الأظغان سقبا أحبّ إليّ من بغل رقوق

وكليب ينبح الطراق عني أحبّ إليّ من قطٍّ ألوف[2]

إلا أن ظاهرة الانتقال من البادية إلى المدينة لم تكن منتشرة بالشكل الذي نراه اليوم، ففي عصرنا هذا انتشرت هذه الظاهرة وتعددت عناصرها نتيجة ارتباطها بالواقع الاجتماعي خاصة بعد ازدياد حركة التصنيع ومل ينتج عنها من صراع بين الذّات والموضوع.

(1) محمد شيراني: المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، 1988، ص 74.

(2) مختار أبو غالي المدينة في الشعر العربي المعاصر ،ص8.

وإدا تجاوزنا المعاني المتعددة لمصطلح الاغتراب وجدناه ينقسم إلى قسمين: اغتراب اجتماعي ويعني الابتعاد عن المكان أو الوطن الأصلي واغتراب نفسي يتصل بإحساس الفرد بأنه معزول ومحاصر ومطارد في عالم اليوم وبيئته.

– أما النوع الأول فهو الاغتراب الاجتماعي وما أكثر نماذجه في تراثنا الشعري، فالحنين إلى الوطن والشوق إليه هو من أكثر التجارب أصالة في شعرنا العربي القديم، وقد كانت دوافع هذا الاغتراب متعددة منها ما يتصل بظروف الشاعر، ومنها ما يتصل بظروف الحياة الاجتماعية.

أما النوع الثاني من الاغتراب هو الاغتراب النفسي، فنجد له نماذج في شعرنا القديم ودوافعه كانت متعددة منها ما يتصل بالشعور بالغربة الطبقية والاجتماعية، كالذي حدث للشعراء الصعاليك، ومنها دافع الشعور بالضغط نتيجة تقيد الحريات السياسية والفكرية كالذي حدث للكثير من الشعراء نتيجة لموقعهم من السلطة ،ومنها ايضا عدم الشعور بالانسجام مع الواقع الاجتماعي والثقافي السائد، وما اكثر الشعراء الذين تعرضوا لهذا النوع من الاضطراب، ذلك أن أسبابه كانت قوية وخاصة في أواخر الدولة العباسية، ومن الشعراء الذين ظهرت عندهم نماذج من الاغتراب النفسي: "المتنبي،" أبو العلاء المعري"، أبو حيان التوحيدي"... وغيرهم. فالمعري يعبر عن هذا الاحساس، فيرى أن أهل الفضل غرباء عن أوطانهم لشعورهم بأنهم غرباء بين قومهم يقول:

أولو الفضل في أوطانهم غرباء تشد وتنأى عنهم القرناء[1]

ويصف أبو حيان التوحيدي غربته بين قومه بقوله: لقد أمسيت غريب الحال غريب اللفظ، غريب النخلة، غريب الخلق، مستأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتادا للصمت، ملازما للحيرة، محتملا للأذى، يائسا من جميع ما أرى.

(1) طه حسين، صوت ابو العلاء، مطبعة المعارف، القاهرة، 1944، ص16-17.

فقد كان أبو حيان غريبا بين أهل عصره يعاني الوحشة والوحدة عند هؤلاء الذين يعانون من الاغتراب والوحدة في المجتمع خاصة في العصر العباسي، حيث كثرت الترجمات وتنوعت عند أهل العلم والمعرفة، فإذا انتقلنا إلى عصرنا الحديث نجد أن الاغتراب أصبح ظاهرة شائعة في آداب المهجر، وغدا الشاعر يعاني من الاغتراب الإجتماعي الناتج عن بعده عن وطنه، والإغتراب النفسي الناتج عن إحساسه بالعزلة وبعدم التجانس مع البيئة الجديدة[1]

وقد كان لغربتهم عن بلادهم وحنينهم إليها الأثر الكبير في نزوعهم إلى التعبير عن مشاعر الاغتراب، كما كان في صعوبة التأقلم مع البيئة الجديدة، وقساوة العيش فيها أثر في ذلك، فقد شعر هؤلاء الأدباء بالعزلة في المدن الصناعية الكبرى التي يتطاحن فيها البشر ويتصارعون على المادة، ولا يجد فيها الغريب إلا الوحشة والضيق ،مما جعلهم يسكنون على أنفسهم ويكثرون من تأملاتهم[2]

إن المتفحص لدواوين شعراء المهجر يدرك أن غربتهم لم تكن مجرد حنين إلى الأوطان كانت مجرد حنين إلى الأوطان، بل كانت مزيجا من أحاسيس الحنين والعزلة والوحدة والحزن والضياع، وعدم القدرة على التكيف مع الأوضاع الحضارية والاجتماعية الجديدة، ومن ثَمَّ فإن اغترابهم- كما نعتقد – كان مزيجا من الاغتراب النفسي والاغتراب الاجتماعي-.

تبدوغربة الشاعر العربي في المدينة في مستواها الأولى غربة مكانية واجتماعية، ذلك أن المدينة تعدّ واقعًا جديدًا، يختلف عن واقع القرية المفتوح ومن ثمّ فإن أول ما يحس به الشاعر في هذه المدينة الوحدة والعزلة[3]

(1)محمد شيراني المدينة في الشعر العربي المعاصر ،رسالة ماجستير ،جامعة الإسكندرية،1988 ص76.75.

(2)عمر الدسوقي،في الأدب الحديث،ج2،ط3،دار الفكر العربي،القاهرة،1959 ،ص220.

(3)محمد شيراني المدينة في الشعر العربي المعاصر ،رسالة ماجستير ،جامعة الإسكندرية،1988 ص78 .

فنجد أن عبد الوهاب البياتي خصص الجزء الثالث لديوانه الذي تحدث فيه عن الفقر والثورة عبّر فيه عن الاغتراب ومرارة المنفى يقول:

سيد علي بالظلمة

شوارع هاته المدن التي نامت بلا نجمة

تبدو الغربة والنفي والاضطهاد والحنين إلى الوطن وكأنها تحيل إلى موضوع ذاتي، في حين هي قضية عامة لامتزاج الوطن بذات الشاعر، والبحث عن الحرية، لذلك في الجزء الرابع للقصيدة يمزج الشاعر بين التجربة الذاتية والجماعية، يقول:

غريبا كنت في وطني وفي المنفى

جراحاتي التي تشفى

ستفتح في غد فاها

لتسألني

لتصليني

على شباك مشفى

وهذا هو الشاعر صلاح عبد الصبور يصور معاناة الانسان من هذه الحقيقة المرة التي لا تعيش إلا في المدينة، حيث ينتهي كل شيء بموت الانسان فلا تبقى منه سوى ذكرى عابرة قد تطوق بصحبة المقربين فلا تمكث غير لحظة ينال فيها منهم دعاءً آليا بالرجعة له

... وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلاً

في زحمة المدينة المدينة المنهرة

أموت لا يعرفني أحد

أموت لا يبكي أحد

وقد يقال بين صحبي في مجامع المسامرة

مجلسه كان هنا وقد عبر

فيمن عبر

يرحمه الله[1]

فالصغير والكبير والمغمور والمعروف، سواء في هذه الزحمة المنهمرة في المدينة وكلهم خاضع لنفس الحقيقة.....

لقد أحس الشاعر من خلال معاناته ومعايشته للآخرين أن الوشائج الانسانية والاجتماعية السلمية التي تربط بين الناس مقطعة الأوصال في المدينة.[2]

كما يواصل صلاح عبد الصبور في تصويره لمعاناته في المدينة يقول في قصيدته "الحزن":

يا صاحبي إني حزين

طلع الصباح، فما ابتسمت، ولم ينهر وجهي الصباح

وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح

وغمست في ماء القناعة خبز أيام الكفاف

ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش

فشربت شايا في الطريق حزن تمدد في المدينة.[3]

ويتطور شعر الاغتراب في المدينة إلى ما يمكن أن يسميه العجز عن التواصل، وهذا هو الشعور العام لدى شعراء المدينة، يقول صلاح عبد الصبور في ديوانه الأول[4]:

جارتي ندت من الشرفة حبلا من نغم

(1) ديوان صلاح عبد الصبور، مجلد 2،1 دار العودة بيروت، 1987، ص194 -195

(2)عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية و المعنوية،ص337336.

(3) ديوان صلاح عبد الصبور،المجلد2،1دار العودة ،بيروت،1987ص36

(4) المصدر نفسه،ص64.

نغم قاس رتيب الضرب منزوف القرار

نغم كالنار

نغم يقطع من قلب السكينة

بيننا يا جارتي سبع صحاري

وأنا لم أبرح القرية منذ كنت صبيا

وإذا تصفحنا تجربة شاعر مثل عبد العزيز المقالح وجدناه يؤكد لنا هذه الحقيقة، فهو يعاني الوحدة بعد فراق الأحباب وفقدان التواصل، يقول في قصيدته "الكتابة للموت"[1]:

وإذا عدت إلى الدار

وأفلت وجهي في درب الأظفار كيف أراهم

من سيدل المشتاق على أبواب مدينتهم

ويلي من زمن أبقى فيه وحيد الظل، وحيد الصوت

أقرأ نفسي أستنجد بالدمع وجوه الأحجار

أقرأ أبوابا موصدة، وصدورا لا تفتح

(1)مختار أبو غالي: المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص 30.

أما غربة البياتي فهي تشكل ظاهرة بارزة في شعره إذا زاد إحساس الشاعر بالوحدة أنه ظل يدرع العالم جيئة وذهابا دونما كلل، فهو أكثر شعرائنا سفرا وارتحالا، وكلما واصل السفر كلما تعمق إحساسه بالوحدة' إنه يسافر علّه يعثر على الحلم، وقد عانق الواقع، لكنه يوقن بعد كل سفر إلى المدينة من كل المدن، فيزداد التصاقا ببلبال هذا العالم[1].

وهذا وتبقى ظاهرة الغربة في المدينة مرتبطة –في أغلب الأحيان– بمعايشة الشاعر في عالم المدينة وأوضاعها الجائرة، غربة اجتماعية ونفسية تغذيها عوامل ذاتية وموضوعية، عبرت عن مأساة الانسان في صراعه مع واقعه، وقد كان هذا الواقع جهما، ليس من السهل التكيف معه، فكانت مشاعر الغربة تتملك الشاعر وتصبغ رؤاه بالقتامة يقول جوزيف صايغ:

قد هدّم الليل رؤى المدينة

وثقب البرد قماش السماء

وأدلج الشريد عبد العراء

منزله الريح وهدى المتاه

وضفة النهر سرير الهوى

من ذاته فرّ وقد أوى

إلى الخمور من بغي الحياة

فهذه المقطوعة تجسد أقصى درجات ضعف التواصل الاجتماعي وتبين حجة الضياع للإنسان في محيط البشر الزاخر باللامبالاة، ومثل هذه المواقف جعلت الشعراء يصابون هم أيضا بعدوى اللامبالاة، لأن مجتمع المدينة القاسي استطاع أن يخضعها لنواميسه.[2]

(1)محمد شيراني: المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، ص87.

(2) محمد شيراني: المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير جامعة الإسكندرية ،1988،ص91.

5. المدينة والحزن في الشعر العربي المعاصر:

تعد ظاهرة الحزن –كظاهرة الغربة من الظواهر البارزة في الشعر العربي المعاصر، بل هي تختلط بالغربة والاحساس بالضياع في المدينة المعاصرة، فالحزن هو النتيجة التي تصب فيها في النهاية هذه المشاعر، قد استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن القول أن الحزن قد صار محورا أساسيا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد[1].

وانتشار هذه الظاهرة وتعمقها في الشعر العربي المعاصر نجد أنفسنا نتساءل لماذا استفحلت هذه الظاهرة عند الشعراء المعاصرين، أو بالأصح لماذا أصبح هذا الشعر مغلقا بطابع المأساة في معظمه؟

حول هذه الظاهرة يرى الدكتور عز الدين اسماعيل أن الشاعر المعاصر يختلف عن الشاعر القديم في رؤيته للحزن، وذلك راجع لعدة أسباب من بينها اختلاف طبيعة الادراك بينهما: فالشاعر القديم كان يقف برؤيته –في الغالب– عند حدود الوجه الواحد، فإذا رأى الوجه المطرب طرب، وإن هو رأى الوجه المحزن حزن، أما الشاعر المعاصر فقد اتسع مجال رؤيته واكتسب نوعا من الشمول، فلم تعد أشكال الحياة أمامه ألوان مختلفة يستقل بعضها عن بعض، وإنما تتمازج فيها الألوان لكي تضع الصورة العامة، ومن ثم لم يعد الشعر المعاصر يرى الجانب الناصع وحده أو الجانب القاتم وحده، وإنما هو يرى الجانبين ممتزجين.[2]

وبما أن المدينة هي الوعاء أو الإطار الذي حمل هذه المتغيرات، فإن الشاعر كثيرا ما يجد حزنه نابعا من واقعها الذي يتسم بالحزن والعار، ويتحول فيه الانسان إلى رمز حيواني مادي، ومما لا شك فيه أن العالم لم يشهد ما شهده القرن العشرين من انتصارات علمية

(1)عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 253.

(2)المرجع السابق، ص 253.

باهرة كان يتطلع إليها الانسان فيما مضى –وهو أتون المأساة– على أنها "الأمل" فكان هذا الأمل يلون المأساة الكلاسيكية أو الرومانسية لما يبثّه الحنين إلى عالم أجمل وأفضل... وسيطرة الفلسفات المثالية والمثل الفاضلة على الأذهان والوجدان، أما الانتصارات العلمية في القرن العشرين فقد رافقتها سيطرة أبشع النظم الاستغلالية التي من شأنها أن تحول انتصارات العلم إلى انكسارات وانتكاسات للإنسان في أعز ما يملك من القيم: الحرية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هذا التقدم العلمي المذهل في عصرنا لم يرو ذلك التعطش الميثافيزيقي إلى معرفة السر أو اللغز أو المجهول.[1]

وترتبط ظاهرة الحزن في المدينة بالاحساس بفقدان روابط العاطفية وخاصة عاطفة الحب التي كثيرا ما تغنى بها الشعراء الرومانسيون، يقول صلاح عبد الصبور في قصيدته "الحب في الزمان"[2]

الحب يا رفيقي، قد كان

في أول الزمان

يخضع للترتيب والحسبان

"نظرة فابتسامة فسلام

فكلام فموعد فلقاء

اليوم يا عجائب الزمان !

قد يلتقي في الحب عاشقان

من قبل أن يبسما

(1)غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين؟، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1968، ص 12.

(2)ديوان صلاح عبد الصبور، مج 1، 2، 219، 220.

ولصلاح عبد الصبور أبيات أخرى تعمق إيقاع الزمن، يقول في قصيدته "أغنية من فيان"[1]:

أما دخلنا في مواكب البشر

المسرعين الخطو نحو الخبز والمؤونة

المسرعين نحو الموت

في جبهة الطريق انتقلت دراعها

في نصفه تباعدت، فرقنا مستعجل ليشد طفلته.

وأمام هذه الظروف أحس الشاعر بالحنين إلى هذه العاطفة وإلى قلب صادق خالٍ من الزيف يعيد له توازنه في عالم المدينة، فالناس في المدينة متفرقون منغلقون عن أنفسهم، غير متواصلين، وكان الشاعر يطمح في هذا التواصل، وفي هذا يقول البياتي:[2]

لو يعلمون يا مدينتي

الدفء ليس مدفأة

الدفء ليس في الغطاء

الدفء في مودة اللقاء

الدفء في قلوبنا لو حطمت جليدها

لو تبدأ الفوضى الخرساء

حديثها.

(1)المرجع السابق، ص 215.

(2)مختار أبو غالي: المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص 175.

أما عبد الوهاب البياتي فيضيق درعا بواقع الحياة وبصور ما فيها من عناء وبلاء وحزن بالحديث عن مدينة وهمية تخلو من هذا العناء والبلاء، وليس لها وجود فيقول: [1]

تظن بالناس وبالدباب

ولدت فيها وتعلمت على أسوارها الغربة والتجوال والحب والموت ومنفى الفقر في عالمها السفلي والأبواب علمني فيها أبي قراءة الأزهار

والرفض والإصرار

والحزن والطواف

بحثا عن النور وعن دفء ربيع لم يجيء بعد

وما زال نبض الأرض والأصداف

علمني فيها انتظار الليل والنهار

ولا يظن صيغها بالناس وبالذّباب

وتكمن أبعاد الضياع في صورة واحدة، حيث يقول صلاح عبد الصبور وقد علا صوت التشاؤم والحزن والضياع يقول:[2]

لكني يا فتنتي مجرب وعيد

على رصيف عالم يموج بالتخطيط والقمامة

كون خلا من الوسامة

اكسبني التعقيم والجهامة

(1)رجاء محمد عبيد: مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر ،دار الفكر العربي ، ص 28.

(2)ديوان صلاح عبد الصبور، مج1، 2، ص 246.

حين سقطت فوقه في مطلع الصبا

وهكذا فقد أحس الشاعر أن كل شيء يحاصره في المدينة، فكل رغباته وأحلامه وآماله تغتال وتذبح وهو عاجز عن فعل أي شيء.

وكثيرا ما يقترن الحزن في المدينة عند الشاعر بأحاسيس الغربة والضياع، خاصة عندما بسط الليل جناحيه على الشوارع فيزيد من حزن الشاعر وغربته وضياعه، يقول صلاح عبد الصبور: [1]

الليل حينما ارتمى على شوارع المدينة

أغرق الشطآن بالسكينة

تهدمت معايير السرور والجلد

لا شيء يوقف المأساة... لا أحد.

وقد ينتهي الأمر به وهو في عزلته وضياعه إلى توقع الموت نتيجة الظروف القاسية التي يعيشها في المدينة، يقول صلاح عبد الصبور:

ينبئني الشتاء هذا العام أنني أموت وحدي

ينبئني هذا المساء أنني أموت وحدي

وأن أعوامي التي مضت كانت هباء

وأنني أقيم في العراء

ينبئني شتاء هذا العام أن داخلي، يرتجف بردا.

(1)ديوان صلاح عبد الصبور، مج2، 1، ص 110.

ويواصل صلاح عبد الصبور تصوير حزنه في المدينة، يقول ف قصيدته "بحر الحداد"[1]:

الليل يا صديقي ينقضي بلا ضمير

ويطلق الظنون في فراشي الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

رحلة الضياع في بحر الحداد

فحين يقبل المساء يقفر الطريق

والظلام محنة الغريب

يهب ثلثه الرفاق فض مجلس السمر

إلى اللقاء... وافترقنا نلتقي مساء غد

فالليل عند صلاح عبد الصبور هو غراب الضمير والغربة والموت هو مدلول "شمولي" لا يقبل التجزئة.[2]

هكذا غدا الحزن ظاهرة عامة تتملك رؤية الشاعر وتسيطر على وجدانه وأفكاره ووثيقة ذاتية تدين واقع الحياة من حولنا ومواصفات المدينة الجديدة، وقد عبر العديد من الشعراء عن مأساة الإنسان في عالم المدينة، الإنسان المحطم الآمال الذي يعيش في صراع مع وصفه، وفي قلق دائم من مصيره المجهول، وإذا كان هذا الموقف يبدو أحيانا غارقا في الذاتية، فقد استطاع الشاعر أن يتعدى مرحلة الحزن الرومانسي وأن يعانق التجربة الجديدة في المدينة التي ترتكز على الأسباب الموضوعية، فالغربة، الضياع.... كلها أسباب ارتبطت

(1)ديوان صلاح عبد الصبور، مج1، 2، ص 7.

(2)غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين؟، ص 230.

بالمدينة وخلقت عند الشاعر ذلك الموقف عن الحزن الذي ينطوي على رغبته في حياة أفضل وعلى رفضه للواقع القائم بكل مأساته ولم يكن حزنا فلسفيا نابعا عن مذهب فكري، بل كان شديد الارتباط بتجارب الشاعر الذاتية والاجتماعية في عالم المدينة.[1]

(1)محمد شيراني: المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، ص102.

الفصل الثاني

الفصل الثاني: تجليات المدينة في شعر بدر شاكر السياب

1- بدر شاكر السياب بين القرية والمدينة

أ- التعريف بالشاعر بدر شاكر السياب

ب-السياب بين القرية والمدينة

2- صورة المدينة عند بدر شاكر السياب

3- القرية كبديل عن المدينة

1- بدر الشاكر السياب بين القرية والمدينة

أ. التعريف بالشاعر بدر شاكر السياب

فتح "بدر شاكر السياب" عينيه لأول مرة في حياته القصيرة على مشاهد الريف الجنوبي من العراق، كان هذا في بيت من بيوت قرية صغيرة تدعى "جيكور" التابعة من الناحية الإدارية لولاء البصرة سنة 1926م.

بدأت حياة "بدر شاكر السياب" بسلسلة من المآسي حيث أصابه أول شدخ من الشدوخ النفسية العديدة التي تزاحمت عليه خلال سنين حياته، فقد غابت عنه والدته غيابا نهائيا برحيلها عن الدنيا عام 1932م، فخلفته طفلا يتيما في السادسة من عمره، وفي نفس هذا العام الذي ماتت فيه أمه دخل "بدر شاكر" المدرسة وبعد إتمام دروسه الابتدائية انتقل منها إلى المدرسة المحمودية، حيث أتم دراسته التكميلية بها، بعدها انتقل إلى مدرسة البصرة لإكمال دراسته الثانوية، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية عام 1943م كان عليه لكي يكمل تعليمه العالي أن يهجر البيت الذي ولد فيه، هذا البيت الذي يعد رحبا وفخما إذا قيس بسائر بيوت القرية.

وظل "بدر شاكر" يحمل هذه القرية الصغيرة في قلبه منذ أن نأى عنها، بعد أن شدته نداءات المدينة المدوية إلى طلب العلم فيها، وإلى الخوض في متاهاتها واقتحام صراعاتها المتعددة.

وظلت "جيكور" في مخيلته – طيلة حياته القصيرة– بمثابة المرفأ الآمن الذي ترسو عليه السفينة الضالة، عساها أن تستريح – لبعض الوقت– من عناء الرحلة ومشقة التجوال، وفي أحد أيام عام 1943م رحل "شاكر" إلى بغداد طلبا لقسط أكبر من التعليم فالتحق بدار المعلمين العالية، واختار لتخصصه فرع اللغة العربية فقضى سنتين في تتبع الأدب العربي تتبع تذوق وتحليل واستقصاء. وفي سنة 1945م هجر قسم اللغة العربية إلى قسم اللغة

الإنجليزية ويرجع هذا التحول إلى رغبته الجامحة في الإطلاع –بصورة منظمة– على روائع الأدب الإنجليزي تخرج منها سنة 1948م، وفي تلك الأثناء عرف بميوله السياسية اليسارية، كما عرف بنضاله الوطني في سبيل تحرير العراق من النفوذ الإنجليزي، وفي سبيل القضية الفلسطينية.

وبعد أن أسندت له وظيفة التعليم للغة الإنجليزية في مدرسة الرمادي الثانوية، وبعد أن مارسها عدة أشهر فصل منها بسبب ميوله السياسية وأودع السجن. ولما رُدت إليه حريته اتجه نحو العمل الحر ما بين البصرة وبغداد، كما عمل في بعض الوظائف الثانوية، وفي سنة 1952م اضطر إلى مغادرة بلاده والتوجه إلى إيران فإلى الكويت، وذلك عقب مظاهرات اشترك فيها.

وفي سنة 1945م رجع الشاعر إلى بغداد ووزع وقته ما بين العمل الصحافي والوظيفة في مديرية الاستيراد والتصدير، وقد انتقل من وظيفته إلى تدريس اللغة الإنجليزية، وفي سنة 1959م، وانتقل من وظيفة التعليم إلى السفارة الباكستانية يعمل فيها، وبعدما أعلن انفصاله من الحزب الشيوعي عاد إلى وظيفته في مديرية الاستيراد والتصدير، ثم انتقل إلى البصرة وعمل في مصلحة الموانئ، وفي سنة 1962م أدخل مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت للمعالجة من ألم في ظهره، ثم عاد إلى البصرة وظل إلى آخر يوم من أيامه يصارع الآلام إلى أن توفي سنة 1964م.[1]

(1) حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب الحديث، دار الجيل للطباعة، بيروت، لبنان، 2005، ص 636، 637.

ب. السياب بين القرية والمدينة:

لقد كان الشاعر يحس بفراغ نفسي "..الوحدة النفسية" وتتمثل هذه الصورة على التحديد في تجربة المرأة، أو تجربة الحب، فالصدمات العاطفية المتلاحقة، بعد الشعور بمرارة اليتم والوحدة، والتجربة الشيوعية والقومية، والصراع مع المرض، محطات تركت انعكاساتها وبصمتها في شعره وفي حياته، ومن الطبيعي بعد هذا الفشل الذريع والخيبات المتلاحقة التي خلفت في نفسه شعور بالغربة والوحدة والعزلة، مما جعل "السياب" يقرر الانتقال من القرية "جيكور" إلى المدينة "بغداد"، حاملا معه حياءه وقيما أخلاقية تربى عليها، ولقد كتب "السياب" قصيدة بعنوان "اللقاء الأخير" قائلا فيها:

هذا هو اليوم الأخير

وا حسرتاه أتصدقين؟

هذا هو اليوم الأخير

وا حسرتاه أتصدقين

ألن تخف إلى لقاء؟

هذا هو اليوم الأخير فليته دون انتهاء

فقرية "السياب" هي "جيكور" التي اشتهرت في شعره وليست منه ، فهي لولاه قرية منسية متواضعة إلى جنوب البصرة، ولعلها بسبب هذا التواضع والتواري، احتفظت بصفات محببة إلى قلب "السياب" فكان يرجع إليها كلما أتعبه العيش، والواقع أن "السياب" لم يفارق "جيكور" مفارقة هجرة. فهو لم يغادر حتى يرجع إليها، لكن عمله في البصرة ثم في بغداد كان سيبقيه بعيدا عن القرية ، فكانت غربة متعبة مهما قصرت مدتها[1] .

(1) أمل دبير، الإلتزام في شعر بدر شاكر السياب، بيروت، لبنان، 1082، ص 194.

ومن هنا كان شوقه الدائع إلى "جيكور، هذه الأخيرة بالنسبة له هي جذوره، منشأ هويته ومبدأ انتمائه على أكثر من صعيد، وغنا عن التذكير كما أن نفس كنفس "السياب" مرهفة الحس إلى حد القلق كانت تحتاج إلى مثل "جيكور" قرية وديعة ملدا ومأمنا.

ومن هذه الجذور التي كانت تشده إلى "جيكور" شدّا محكما، الانتماء العاطفي وقد ترك فيها أمه دفينة وحبه الأول كذلك، وكأنه بذلك دفن فيها طهر العاطفة وذاق بذلك الحرمان والجوع العاطفي.

وقد رافقت "السياب" "جيكور" في كل مراحل حياته، عرفها طهارة في الحب، وفي الانتماء السياسي في سن السادسة تبدأ الخيبات فيها بالحد من مثاليته والترجيح بإحساساته، ثم إن ما لقاه "السياب" في المدينة كان من شأنه أن يغذي تعلقه بالقرية.

ولكن قبل أن ندخل في درس صورة المدينة، تجدر هنا الإشارة إلى عنصر هام جدا كان من شأنه أن يؤثر في موقف "السياب" من المدينة. هذا العنصر هو عنصر الثقافة، ففي ذكر لروافد ثقافته يشير "جبرا إبراهيم جبرا" إلى تأثر السياب من جهة بقصيدة "إليوث" "الأرض اليباب" وفيها "مدينة الوهن" وبقصيدة "بودلير" من جهة أخرى وفيها "يا مدينة زاخرة" مدينة ملئها الأحلام ،حيث يمسك طيف طوال نهار بعابر السبيل.

صحيح أن المدينة التي عرفها "السياب" ليست المدينة المعاصرة الذي عنى منها كل من "إليوث" و "بودلير"، غير أن كل ما كان يشعر به ابن القرية النائية الوديعة اتجاه مجتمع المدينة وتركيبه كان يشبه إلى حد كبير شعر الضياع الذي تكلم عنه "إليوث وبودلير" وذلك مع الاحتفاظ بالنسبة.

إن "بغداد" المدينة لم تعرف "المكننة والآلية" التي قال "بودياييف" أنها تشكل الصيغة القصوى التي يتحول بها الوجود الإنساني إلى الشيئية، فينطرح ظلاله خارجا في عالم من غربة وجليد.[1]

ولكن لابد أن الفرق بين جيكور وبغداد كان مهما وكان من شأنه أن يُشعر "السياب" بغربة في المدينة، ألا وكيف يُفهم هروبه إلى قريته عند كل خيبة وكلما طُرد من وظيفته بسبب اندفاعه لتظاهرة سياسية؟

ولعل شعوره بالضياع والغربة في المدينة كان الدافع الذي حمله على اختيار وجوه إنسانية تجسد تجربته الشعرية في أوائل الخمسينات لدا نراه يتعرف في المجتمع البغدادي على وجه المومس والحفار والمخبر، فكأن المذهب الشخصاني في القائد "الوجه"، كان جزء من مكافحته ضد المدينة المعاصرة حيث يعلو صوت الآلة والسيارة، على صوت الإنسان الفرد، ولئن لم تدرك الحضارة المادية للسياب بالآلة والمكننة ومجتمعها وأحكامها ومقتضياتها إلا أنها أدركته بصورة الشعور بالحرمان والغربة الذي سببه المال.

"المال شيطان المدينة" يقول "السياب" عام 1954م في قصيدة "المومس العمياء"، وهو المال الذي غربه عن وطنه، فيبقى عبدا للغربة في الخليج، وهو القضية الأهم التي لزمت شعره في مرحلة أولى وجاء منفعلا بها، هذه المرحلة تتجلى في قصيدة "عرس المدينة في القرية" 1955م هو "مرئية جيكور" عام 1955م، ثم تبعها مرحلة الصراع بين القرية والمدينة في ذات الشاعر، كما تتجلى في قصيدتي "تموز جيكور" 1955م، و "جيكور المدينة" 1958م، وينتهي الصراع بالعودة إلى جيكور عام 1960م التي يقدمها الشاعر بديلا عن المدينة المومس، وستظهر مرافقنا "للسياب" في المراحل الثلاث أبعاد هذا الالتزام وأعماقه،

(1) المرجع السابق، ص 197، 198.

"السياب" يثور على ما هو كائن، أي على سيطرة المال والمادة، باسم ما سوف يكون أو بسبب ما ينقص الواقع من أجل أن يكون حياة حق.[1]

كما أن "السياب" كان يربط رباطا وثيقا بين المال والخيانة، فالطهر ليس في القرية فقط، لكنه محصور بصورة خاصة بطبقة الفلاحين، وبما أن طبقة الفلاحين ليست كبيرة في المدينة التي شيطانها المال، يفهم من هنا أن يكون واقع المدينة في ذهن "السياب" واقع خيانة وأن تكون المدينة مومس.[2]

وذلك ما جعله ينفر منها لأنها بخيلة لا توجد كما توجد القرى سخاء، نقاء، وحب فقسوة المدينة التي تجسدت في توسعها على حساب الموتى، من أجل إشباع أربابها الطبقيين الذين يمارسون الاستغلال لابتغاء الحصول على حفنة من النقود لا تساوي عظام الموتى البالية، وهناك القهر السياسي الذي ارتبط بالمدينة ونال منه "السياب" المطاردة والسجن والتشرد كما قال:

وبين الضحى وانتصاف النهار

إذا سبّحت باسم رب المدينة

بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب صغار

رحى معدن في أكف التجار

لها ما لأسماء جيكور من لمعة واسمها من معان كثار[3]

(1) المرجع نفسه، ص 198.

(2) المرجع نفسه، ص 204.

(3) يوسف شنوت الزبيدي: موسوعة روائع الشعر العربي، بدر شاكر السياب، ص 145.

فهي رمز للصراع بين المخالب الآدمية لأن صوت الروح لم يعد يُسمع في أرجاءها بعدما تمكن منها التجار.

وحينما يعرض "السياب" صورة السوق في قصيدته "السوق القديم" هذا السوق من أسواق المدينة تخيم عليه الوحدة منذ البداية لأن الشاعر حدد الزمن فجعله ليلا خاليا من حركة البيع والإثراء، اللهم إلا بعض همهمات العابرين مما يعمق الإحساس بالغربة، فيذكر من طاف بهذا السوق قبله من الغرباء، وأحس بنفس الإحساس، وذكره بصدى غناء بعيد بالقرية:

كما طاف من قلبي غريب

في ذاك السوق الكئيب

فرأى وأغمض مقلتيه وغاب في الليل البهيم

في حلق الدخان خيال نافذة تضاء

والريح تعبث بالدخان

الريح تعبث في قبور واكتئاب بالدخان،

وصدى غناء

نارٌ يذكر بالليالي المقمرات وبالنفيل،

وأنا الغريب....

أضل أسمعه وأحلم بالرحيل

في ذاك السوق القديم.[1]

(1) أمل دبير، الالتزام في شعر بدر شاكر السياب، بيروت، لبنان، 1982، ص 51.

"فالسياب" هنا يعطي السوق صورة قاتمة «فهذا السوق من أسواق المدينة تخيم عليه الوحدة منذ البداية لأن الشاعر حدد الزمن فجعله ليلا خاليا من حركة البيع والشراء اللهم إلا بعض همهمات العابرين ، مما يعمق الإحساس بالغربة».

فالسياب لم يستطع أن ينسجم مع بغداد لأنها عجزت أن تمحو صورة جيكور أو تطمسها في نفسه، فالصراع بين جيكور وبغداد، جعل الصدمة مزمنة، حتى حين رجع السياب إلى جيكور ووجدها قد تغيرت لم يستطع أن يحب بغداد، أو أن يأنس إلى بيئتها، وظل يحلم أن جيكور لا بد أن تبعث من خلال ذاته، ومع أن القرية قد اندثرت فإنها بقيت في ذات الشاعر الذي منحها ما لم يمنحه شاعر لقريته.

2- صورة المدينة عند بدر شاكر السياب:

تعد المدينة إحدى القضايا الأساسية في الشعر العربي الحديث، الذي جسد الشاعر من خلالها وعيه الجمالي بالحياة العربية، وتفاعلاتها المختلفة داخليا وخارجيا، وبلور موقفه الكلي منها، في صورة سلبية هجائية، ينبغي مقاطعتها والخروج منها إلى القرية من جهة، وضرورة نقدها ومعاينتها لاستيعابها وإعادة بعثها ثانية، من جهة أخرى.

ولعل بدر شاكر "السياب" من أفضل الشعراء المحدثين الذين عبروا عن تجربة الصراع والتوتر المؤلم بين الريف والمدينة، إذ ظل حبيس الذاكرة الطفولية وقريته "جيكور" رمز الأم والحبيبة، ودنيا النعيم والسحر والصفاء والسعادة في مقابل "بغداد" التي تمثل أعماق الجحيم، حيث القهر السياسي والبؤس الاجتماعي والضياع النفسي.

تغنى "السياب" بقريته كثيرا، فكانت المكان المديحي في أغلب أشعاره "أفياء جيكور"، "العودة إلى جيكور"، "جيكور والمدينة"، بعكس المدينة التي اتخذت صورة المكان الهجائي مثلا في "مدينة السندباد"، "مدينة بلا مطر"، "المومس العمياء".[1]

فشعور "السياب" بالمرارة والحزن والغربة واليأس الذي سيطر عليه في دروب المدينة هو الذي جعل علاقته بها هي صورة الغريب في عالم الجحيم، حيث تصبح المدينة وحشا قاتلا، وحبل مشنقة ونار وعذاب:

يا صمت، يا صمت المقابر في شوارعنا الحزينة.

أعوى أصيح، أصيح، في لهف فأسمع في السكينة

ما تنثر الظلماء من ثلج وقار

تصدى عليه خطى وحيدات، وتبتلع المدينة

(1) د. إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجا (1925- 1962)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 46.

أصداءهن، كأن وحشا من حديد، من حجار

هي مدينة الحجر التي سلبت الإنسان روحه، حاصرته بالفولاذ والرماد، وأرهبته بالقمع والجنون والموت، هي الطبيعة المصنعة المحنطة في الزجاج والبلور:

هنا لا طير في الأغصان تشدو غير أطيار

من الفولاذ تهدر أو تحمحم دونما خوف من المطر

ولا أزهار إلا خلف واجهة زجاجية

يراح إلى المقابر والسجون بهن والمستشفيات.[1]

وهي صورة قاتمة للغربة والقذارة والهلاك، صورة هجينة جارحة للشرقي العريق، الذي يحتج عليها وينكرها في تساؤل مرّ:

أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول

خط عليها "عاشت الحياة"

من دم قتلاها فلا إله

فيها ولا ماء، ولا حقول؟

أهذه مدينتي؟ خناجر التتر

تغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه

حول دروبها ولا يزورها القمر؟

* * * * *

(1) المرجع نفسه، ص 47.

أهذه مدينتي جريحة القباب

فيها يهو ذا أحمر الثياب

يسلط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار والبيوت

هي الصحراء الخاوية من الإيمان والخير والجمال والعدل، صحراء مظلمة لا نهائية، لا يحدها سوى الموت، لكن هذا لا يعني أنها لعنة أو قدر مشؤوم لا مرد له، بل هي حالة حضارية مرضية وأزمة تاريخية خانقة، هي نتاج لتخلف داخلي، ولفساد مستورد من المدن البعيدة أيضا، "باريس" رمز البغاء والحضارة الآثمة (من ليلي السهاد ليلة في باريس)، التي أغرقت الشرق في وحل الخطيئة.

والله... عزّ الله – شاء

أن تقذف المدن البعيدة والبحار إلى العراق

ألاف ألاف الجنود ليستبيحوا، في زقاق

دون الأزمة جمعاء.[1]

ومن هنا لا خلاص من هذه المدينة الآثمة سوى بالرجوع إلى، الأصل الماضي، حيث الطهارة و الصفاء، العدل و الكرامة. إلى "الصحراء"، حيث الينابيع القدسية والجوهر الأصيل أو العالم البديل المنشود:

أقصى مناى، وإن سلمت فإن كوخا في الحقول

هو ما أريد من الحياة، فدى صحاراك الرحيبة

(1) المرجع نفسه، ص 48.

أعدني يا إله الشرق والصحراء والنخل

إلى أيامي الحلوة:

إلى داري إلى غيلان ألثمه، إلى أهلي ! [1]

ليست صورة المدينة السوداوية مبعثا لليأس والموت، فالمعاناة والشهادة هما طريق الخلاص والانبعاث، وليس السياب سوى "مسيح" هذا العصر،الذي يحمل عباء الحضارة ، والسندباد الثائر الذي

يسترد إنسانية الحجر:

أودّ لو غرقت في دمي إلى القرار

لأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحياة، إن موتى انتصار.[2]

لقد آمن السياب أن العذاب ملهم للإرادة والتحدي، وأن الموت منبع لميلاد جديد، ولن تكون الطريق نحو "جيكور" والعالم البديل، القابع في جوهر الذات وأعماق التاريخ، إلا عبر مخاض المدينة الواعد بالطهر والفرح:

بعد أن سمّروني وألقيت عيني نحو المدينة

كدت لا أعرف السهل والسور والمقبرة:

كان شيء، مدى ما ترى العين،

كالغابة المزهرة،

(1) المرجع نفسه، ص 49.

(2) المرجع نفسه، ص 49.

كان في كل مرمى، صليب وأم حزينة

قُدِس الرّبُّ !

هذا مخاض المدينة.[1]

هذه هي صورة المدينة لدى السياب، تمثل لمعاناة الفرد في التحامها بمأساة الجماعة، مشهد بكائي لتاريخ الضياع والاغتراب والانكسار، وحلم الخلاص المنشود عبر ثورة المدينة (الواقع) واسترجاع القرية (المثال)، أي دعوة لتأصيل الحداثة العربية ضمن سياقها الخاص.

إن السياب على الرغم من شعره الغنائي والغزلي والإيقاعي، والندى العابق بالصور والمعاني، لكنه كان يعيش "عقدة النساء" و"الحرمان الجنسي" و"الحب" تماما كما العديد من الشعراء والشاعرات في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، ويعرض السياب في شعره قضية قد أثارها وعمق مأساتها وكأنما أراد أن يجعلها قضية تسويقية ليستجلب عطف كل من حوله وشفقتهم وهي موت أمه التي غابت فجأة وكان الجواب الوحيد ستعود بعد غد لكنه ظل يعاني الكآبة والألم والحزن والنقص وعجز عن الاقتناع بأن أمه ماتت، وبأن طريق الحياة قد تقصر أو تطول، ولذلك كتب أحاسيسه ولا سيما بعدما أيقن أن أمه لن تعود، وأن تسويفات دويه مخدّر فقد مفعوله، ولم يكن عمره يسمح له باكتناه مغزى الأمور المعقدة، فظل يلج في السؤال وكان الجواب دائما "بعد غد".

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام

بأن أمه – التي أفاق منذ عام

فلم يجدها، ثم حين لج في السؤال

(1) المرجع نفسه، ص 50.

قالوا له: "بعد غد تعود..."

لا بدّ أن تعود.[1]

بقي "بدر شاكر السياب" مشدودا إلى أمه، فراح يبحث في وجوه النساء عن ملامح وجه أمه فلم تقع عيناه إلا على قسمات توحي بالرياء واللامبالاة والنفور، فلم يستطع أحد أن يحل محل الأم التي هي بالنسبة له المرأة المثالية، وأمه بالذات، فلم تبق منها غير صورة الأمومة الرمزية تحيط بها هالة مقدسة تقابلها عند الشاعر صور الحبيبات والعشيقات الحقيقيات والوهميات واللافت أن الحرمان من العطف الأمومي ولد في نفس السياب شعور بالانفصال والانعزال والترك فكان يقول: «فقدت أمي ومازلت طفلا صغيرا فنشأت محروما من عطف المرأة وحنانها، وكانت حياتي ما تزال كلها بحثا عمن تسد هذا الفراغ، وكان عمري انتظارا للمرأة المنشودة، وكان حلمي في الحياة أن يكون لي بيت، أجد فيه الراحة والطمأنينة، وكنت أشعر أني لن أعيش طويلا».[2]

يبدو أن علاقة السياب القوية بأمة كانت جزء من محنته الكبيرة وهي علاقته بنفسه وبالمرأة عموما وكان شعره انعكاس لشخصيته وألمه فجاءت قصائده سيلا من الكلمات الناضحة بالحزن والسواد فهو النحيل الهزيل في جسمه فجل ما كتبه في شعره عن الحب وعن المرأة بصفة خاصة كان تعويضا عن نقص في حياته أنه كان يعيش في خواء نفسي وجوع مرضي للعاطفة.

وحتى في مواقفه السياسية فقد كان ضائعا بين الانتساب إلى مجلة "اللآداب" والإلتحاق بمجلة الشعر بين الولاء للشيوعية وتهمة التعامل مع الاستخبارات الأمريكية.

فبدر شاكر السياب طلب المرأة لم بدأ يتفتح على الحياة، فحلم بها في اليقظة والأحلام، فلقد عرف المرأة الريفية التي كانت تعيش معه في جيكور الذي كان همها الوحيد هو الرعي

(1) أنطونيوس بطرس، بدر شاكر السياب، شاعر الوجع، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ص 14.
(2) المرجع السابق، ص 20.

والحياة البدائية، ولما انتقل إلى بغداد رأى عالم جديد يختلف عن عالمه الذي كان يعيش فيه، فلقد وقعت عيناه على المرأة التي تعيش في المدينة فهذه المرأة تتمتع بقسط أكبر من الحرية، فهذه الفتاة كانت تبتسم للشاب، تتحدث أليه باقتضاب، وتقرأ الشعر. ولكن ذلك ما كان إلا ليزيد في عذاب نفسه، لأن قبح منظره وفقره شيد جدارا سامقا بينه وبين المرأة، فاستمر طوال حياته يطلبها، ولا يصل إليها.[1] ذلك أن بنات المدينة االواتي كنّ يحبن أن يتشبث بهن شعرا وغزلا وكلاما معسولا كُنّ يردن أن يكون ذلك مجرد تسلية وكان "بدر" يبحث عن حلم ضائع، حلم بديل عن امرأة مثالية هي أمه التي لم ينقطع أبدا عن التفكير بها، حتى في اللحظات التي ظن أنه سعيد، ولكن صورة أمه كانت تتراءى له في وجوه حبيباته، فيتعذب، ويمكن أن نقول بأن "بدر شاكر السياب"، رأى في المرأة حاجة نفس وجسد، ولا معنى للحياة من دونها:

عيناك... للكوكبين بلا انتهاء

لولاهما ما كنت أعلم أن أضواء الرجاء

زرقاء ساجية... وأن النور من صنع النساء

فهو يرى أن المرأة معذبة أبدا في انتظار حبيب أو في غمرة النضال، أو في فقد عزيز، أو ضحية مأساة خاصة، أو عامة، أو أم ثكلى أو زوجة، أو سواء كانت عاشقة حبيبة كقوله:

أو تذكرين لقاءنا في كل فجر

وفراقنا في كل أمسية

إذا ما ذاب قرص

(1) د.انطونيس بطرس،بدر شاكر السياب ،شاعر الوجع،المؤسسة الحديثة للكتاب،طرابلس-لبنان،ص85-86 .

الشمس في البحر الغنى

تأتين لي وعبير زنبقة يشق لك الطريق فأي عطر

وتودعين فتهبط الظلماء *في قلبي ويطفأ نوره القمر الوضى

فكأن روحي ودعتني واستقلت عبر بحر.[1]

أم كانت زوجة وفية كقوله "في ليلة وداع" أثناء مرضه:

أو صدى الباب فدنيا لست فيها

ليس تستأمل من عين نظرة

سوف تمضين وأبقى... أي حسرة ؟

أتمنى لك أن لا تعرفيها؟

إلى قوله:

لست أهواها كما أهواك يا أغلى دم ساق دمي

إنها ذكرى ولكنك غير ثائرة

من حياة عشتها قبل لقانا

وهوى قبل هوانا

كما عرف الشاعر "المرأة" عاشقة وزوجة له فقد عرفها أرملة للشهيد الذي سقط ضحية الخيانة، فتألم لآلامها وأحزانها:

(1) أحمد صالح محمود عبد ربه، شاعر الرافدين بدر شاكر السياب، رسالة علمية لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، 1299هـ، ص 373.

أرأيت أرملة الشهيد؟

الزوج مد عليه من ثوب لحاف ثم نام

متمددا بأشد ما تجد العظام.[1]

ولم تتوقف مشاعر السياب عند حدود العاشقة والزوجة والأرملة، بل شملت كذلك الأم والجدّة كما سبق أن ذكرنا في طفولته، كما شملت كذلك المرأة "المومس العمياء" التي تعتبر وصمة عار في جبين المجتمع الإنساني ومن ذلك قوله:

ويح العراق: أكان عدلا فيه أنك تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمنا لملأ يديك زيتا من منابعه الغزيرة ؟

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين ؟

عشرون عاما قد مضين وأنت غرتي تأكلين.

كما ثار الشاعر من أجل الظلم الإنساني الذي لحق بالمرأة الضحية فقد وقف أيضا بكل جوارحه ومشاعره إلى جانب المرأة البطلة المكافحة التي ضحت بحياتها من أجل حرية وطنية كما في قصيدته الشهيرة "إلى جميلة بوحيرد" حين خاطبها قائلا بكل فخر واعتزاز:

يا أختنا المشبوحة الباكية

أطرافك الدامية

يقطرن في قلبي ويبكين فيه

يا من حملت الموت عن رافعيه

(1) المرجع السابق، ص 374.

من ظلمة الطين التي تحتويه

إلى سماوات الدم الوارية

حيث التقى الإنسان والله، والأموات، والأحياء في شهقة

في وعشة الضربة القاضية.[1]

وهكذا عرف الشاعر آلام المرأة داخل وخارج العراق، لأن المرأة نصف المجتمع سواء كانت امرأة فلاحة أو مومس عمياء، أو خليلة معشوقة أو حبية عزيزة، أو مناضلة، أو سيدة، أو خادمة، أو غير ذلك.

(1) المرجع السابق، ص 375.

3- القرية كبديل عن المدينة

منذ أن أفاق الشاعر على هذا العالم، وتأمله جيدا بعينيه الصغيرتين، وإرهافه الحسي المتفجر رأى "بصره" الخصب والأنهار، والأشرعة وطيور النوارس، كما رأى شواطئ الرمال والنخيل الممتدة في أعماق "جيكور" وأبى الخصيب، فهو إذن ابن الطبيعة الساحرة التي احتضنت جنوب العراق مسقط رأسه ومهبط ميلاده وملعب طفولته وصباه، إنه بلا شك عالم زاخر بكل ما فيه من ابتسامات ريفية وبساطة، وبكل ما فيه من حركة دؤوبة وسفائن، وسكك حديدية ونفط، كلها غمرت ذهن السياب بالألوان المختلفة ، وبحرارتها الصيفية المتوهجة وبدفئها، وبحزنها الشتائي العميق.

وكان يعشق النخيل الذي أصبحت له منزلة في شعره لم يسبق لها مثيل عند غيره من الشعراء الآخرين، وما أظن شاعرا خلّد النخيل وهام به على نحو ما ذهب إليه السياب مما جعل من الشاعر إنسانا متميزا ومنفردا عن أقرانه بإخلاصه للبيئة التي نشأ فيها، تلك البيئة التي تستقر في الريف البصري الحافي بالماء والشجر، ولقد أحب الشاعر بيئته حبا طفوليا وامتزج بالطبيعة ووصفها -وأكثر من الشعر الغنائي الذي يصف جمال الريف- كما أصبحت جيكور في شعره فردوش وأنشودة خالدة.[1]

وأكثر ما يظهر هذا الانصهار والتفاعل مع جمال النخيل وروعته في ثنايا شعره وروائع قصائده المتعددة وخاصة "أنشودة المطر" حيث يهتف قائلا:

عيناك غابة نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنها القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

(1) أحمد صالح محمود عبد ربه، شاعر الرافدين بدر شاكر السياب، رسالة علمية لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، 1299هـ، ص 233.

وترقى الأضواء كالأقمار في نهر

بوجه المجداف وهنا ساعة السحر

كأنما تنبض في غورهما النجوم

وتغرقان في ضباب من أسى شفيف

كالبحر سرحى اليدين فوق الماء.[1]

وهكذا نجد الشعر قد استطاع أن يصور أحاسيسه ومشاعره وهو يودع أمه الحنون، لكن الحزن سرعان ما عاد ينضح من أعماق الشاعر، لأن المطر في الحقيقة ليس سوى قطرت دموع هذه الأم الحزينة بفراق ولدها المشرد المنفي وسط صحاري الفقر والاغتراب والعذاب، وقد استطاع الشاعر أن يجمع عناصر الطبيعة بالإضافة إلى فصولها المتعددة، فالنخيل والكروم والقمر والنجوم والأنهار، والبحر والظلام والضياء كل ذلك بلا شك يجسد الطبيعة بأجل مظاهرها.

فجيكور بالنسبة للسياب الهواء الذي يتنفسه لأن فيها عاش طفولته، وبها قبر والدته، حيث رسم لها عالم من الأشياء الجميلة في مخيلته، لكن طلبه للعلم شدّه إلى المدينة من أجل أن يحقق ذاته ويخوض في متاهاتها ويقتحم صراعاتها المتعددة، ولكن عندما وصل إلى هذه المدينة، وأخذت تكشف له عالمها، فبدأ يشعر بالحزن والاغتراب يتخبطانه، ولم يستطع أن ينسى قريته وظل يحملها في قلبه منذ أن نأى عنها فلقد ارتطم بهذا الواقع الذي يختلف تماما عن عالم الريف عالم الهدوء والسكينة والإطمئنان، فلقد ود تعارض وتضاد بينهما وهذا من خلال قضية "جيكور والمدينة" التي يرى فيها أن قريته هي رمز الطهارة والنقاء لأنها متمسكة القيم والمثل النبيلة، أما المدينة فهي رمز للصراع بين المخالب الآدمية، لأن صوت الروح لم يعد يسمع في أرجاءها بعد أن تمكن منها التجار، والحق أن هذه

(1) المرجع السابق، ص 234.

الفكرة مستوحاة من واقع المجتمعات الأوروبية الحديثة، ومحاولة لاحتداء آثار الشعراء الأوروبيين المحدثين الذين دعوا إلى عودة الإنسان إلى البساطة بعيدا عن ضجيج الآلات وتعقيدات المدينة الحديثة.[1]

المدينة بالنسبة له تمثل الغربة غربته في الحقول الحزينة واختناقه في دروبها لأنها تزرع الحقد، وبالتالي فإن المدينة تفتقد إلى الحب:

فمن يشغل الحب في كل دروب وكل مقهى وكل دار

كما تفتقد إلى الإنسانية:

ومن يرجع المخلب الآدمي يدا يمسح الطفل فيها جبينه

وكأن السياب يجد الألوه في الحب والإنسانية إذا اجتمعا.

إن الحياة في المدينة تبدأ في الليل الذي تدثر به الخنزير ليصرع أدونيس، حياة المدينة تبدأ حين ينتهي النهار والحب، تستعيد الفردوس الكاذب لأنها فقدت البراءة الأولى.

يعطينا السياب جو البراءة الأولى والتذكير بالخطيئة التي ارتكبها أول زوج آدمي فيقول:

رص المصابيح تفاح نار

ومدا الحوانيت أوراق تينا

أضرمت المدينة شهوة الخطيئة، فكل نور في المدينة هو شهوة مضطرمة، كل لأضواء المدينة الملتمعة دعوة إلى العار الأول.[2]

(1) حسن توفيق، شعر بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط2، 2009، ص 211.

(2) أمل دبير، الالتزام في شعر بدر شاكر السياب، بيروت، لبنان، 1982، ص 206.

لقد لقي السياب فيها ما يلقى على جميع المستويات اجتماعيا وسياسيا وفنيا، حروبا طاحنة تخيب ظنه في آماله المعقودة، فقرر الانسحاب داخليا من هذه الحياة الجديدة، وأخذ منها نفسيا هذا الموقف المتأزم المربك، فلا هو الذي استطاع أن ينفصل، ولا هو الذي استطاع الإلتحام، فلقد ظل واقفا مع المدينة بدنيا – لأنها ميدان معركته، ولكنه منفصل عنها نفسيا– لأنها أصبحت ملكا لغيره، هو إذن "لا ثواء ولا رحيل" بل هو واقف مشدود في صراع عنيف بين النقيضتين، وملأ عينيه بالدموع، حيث لم تستطع بغداد على عمر الشاعر أن تطمس أو تمحو جيكور في نفسه حتى يوم رجع إليها، واستنكر ما حدث فيها من تحولات لم يستطع أن يقصر نفسه على حب بغداد، أو حتى يهدأ من صراع معها، وظل يحلم أن تبعث قريته من جديد، وقد حدث بالفعل، ومع أن القرية قد اندثرت فإنها بقيت في ذهن الشاعر والذي منحها ما لم يمنحه شاعر لقريته، وجودا لا ينفى ولا يبيد، وربما أصبحت أكبر ملمح من ملامح السياب الشعرية، والنظر إلى عناوين قصائده يفسر هذا الزخم الروحي المتعلق بالقرية نفورا مما حدث له في دروب المدينة من انسحاق ومن بعض دواوينه في قصيدة "أفياء جيكور" و"أشجار المدينة" كل هذه العناوين ملتصقة بجيكور وذلك دلالة قوية على مدى ما يعانيه الشاعر في المدينة من مفارقات واغتراب، ومدى ما يحمله الشاعر في نفسه ما تعلق بالقرية، وإذا عرفنا أن هذه القصائد ممتدة في سائر دواوين الشاعر عرفنا بالتالي أن هذه النفس الرومانسية ما زالت عالقة بوجداناته حتى الرمق الأخير من حياته[1] ، بحيث أصبحت القرية –ومن الوجه الآخر المدينة– مرضا مزمنا لم يستطع الشاعر أن يتجاوزه، وربما كانت تفجرات "جيكور" في نفس السياب نابعة من المدينة في الأساس، ولذا كانت متجذرة في النفس في حنين مفتوح على المستقبل، لم تقتصر على فترة محدودة في نموه العاطفي أو الفكري، ولكنه كان يزداد غربة عن واقع المدينة كلما امتد به العمر، ومع ازدياد الغربة تتفجر جيكور عزاء وريفا وطبيعة، وفراديس قروية باهرة تشغل باله على

(1) المرجع نفسه، ص 52.

الدوام، عوضا عما انتابه في المدينة من الإهمال والأدى، إن أسطورة جيكور وبوبيس الخالدة عالم حنان وبراءة كانت تنسيه –ولو إلى حين– وجه المدينة الجهم، فلم تستطع بغداد ولا أيا من المدن أن تأخذ السياب من فراديسه، وكيف وليس في المدينة غير المقاهي والملاهي ودور البغاء، ومستشفيات المجانين وفوق ذلك وذاك ما ترمز إليه.

إن المدينة بغداد هي الخصم الأبدي اللذوذ لجيكور القرية، هما ضدان لا يلتقيان إلا في معركة تلتهم المدينة فيها القرية برموزها.[1]

ثم إن جيكور تظل بما تحتوي نداء الشاعر وصرخته في المدينة حتى ولو كانت المدينة في لندن: الذي جعل منه منه رمزا للثورة والخصب والعطاء غالبا، وأكثر ما يظهر هذا الأثر والإعجاب بالشاعرة، في قصيدته وملحمته الشعرية من "رؤيا فوكاي" التي صور فيها مأساة مدينتي "ناجازاكي" و "هيروشيما" اليبانيتين عقب إلقاء القنابل الذرية عليهما في أواخر الحرب العالمية الثانية.

وقد ازداد حقد الشاعر "السياب" على المدينة وثار على حياتها الزائفة المجردة من القيم الإنسانية والمبادئ المثالية التي شربها من نبع ريفه الطاهر، والبراءة والحياة الإنسانية بكل مقوماتها ومفاهيمها المتعددة وفق كراهيته للمدينة المزيفة[2] التي تدفقت في شوارعها أنهار الدماء، ودوى في أفاقها صوت الرصاص إنها المدينة التي كان "بدر" يتصور أنها «ستغسل من خطاياها»، كما تنبأ في قصيدته "مدينة بلا مطر"، ولكن الواقع أبت له أنها لم تزل مدينة الخطاة، وأن وراء كل طغيان يزول طغيان جديد، وكأنما لا أمل في الخلاص، فالمسيح نفسه يباع في بغداد لحما مقددا العازر يظل حيا دون أن يدعو المسيح:

دعوه فالمسيح ما دعاه !

ما تبتغون لحمه المقدّد

(1) المرجع نفسه، ص 53.

(2) المرجع نفسه، ص 101، 298.

يباع في مدينة الخطاة

مدينة الحبال والدماء والخمور

مدينة الرصاص والصخور

بعيدا عنك أشعر أنني قد ضعت في الزحمة

وبين نواجد الفولاذ تمضغ أضلعي لقمة.[1]

فمن خلال كراهية الشاعر للحضارة المزيفة التي سحقت الإنسان فقد كره الشاعر "المدينة" لأنها بمثابة "وكر" للصوص والذئاب البشرية التي أصبحت طرقاتها حبالا من الطين يمضغن قلبه، ومما زاد في كراهية السياب للمدينة أنها تعيش على عرق الفلاحين البائسين في ريف "جيكور" الحبيبة، هذا ما عمق الإحساس في أعماق الشاعر تجاه المدينة، كم أظن هو الإحساس بالفقر المدقع بين جوانبها، مما جعله يحس بالغربة والضياع في أحشائها، عكس "جيكور" التي كان يحمل في أعماقه منها شعوره الآمن والاستقرار النفسي والروحي.

ولكن عندما تسيطر المادة على الحياة تفقد معناها ولونها ووجودها، كما نؤمن أيضا بأن للمدينة حسنات ومميزات عديدة لأنها مصدر الإشعاع الفكري، والقلب النابض للأمة والعقل المفكر في جسد الشعب بأسره، كما نؤمن أن الحقد ينبع دائما من الفقر والحرمان، وكما تأثر الشاعر "بإليوث" في ثورته على الحضارة الصناعية وكراهيته للمدينة لأنها مركز تجار الحروب والدمار، كما تأثر أيضا بالشاعرة "أدين ستويل" الذي أخذ عنها الاهتمام

(1) حسن توفيق، شعر بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ص 219.

بالإيقاعات الصوتية الممزوجة بالتيار الديني، والأساطير والرموز المختلفة، وبخاصة "المطر".[1]

وهكذا تحولت المدينة في نظر السياب إلى عالم الجنون والسقوط وعبادة المال ومقبرة القيم الإنسانية، مما كان يدفعه دائما للهروب إلى أفياء قريته وريفه الحبيب على جواده الأشهب:

على جواد الحلم الأشهب

وتحت شمس المشرق الأخضر

في صيف جيكور السخي الثري

إنه كضامئ في الصحراء يفتش عن واحة يستريح تحت ضلالها من وهج الحياة القاسية والمدينة الظالم أهلها، لكن "جيكور" وربما الحبيب قد خيم عليها الموت والجفاف لأنها صحبة المدينة الظالمة التي امتصت شرايينها ولم تترك بهما سوى الجوع والخوف والحرمان:

جيكور، جيكور أين الخبز والماء ؟

الليل وافى وقد نام الأدلاء؟

والركب سهران من جوع ومن عطش

ولهذا كله امتلأ قلب الشاعر بالكراهية على المدينة التي تحولت إلى وكر للطغاة وسارقي الأمل الأخضر من عيون الأطفال والأبرياء والنساء والثكالى والأرامل.

(1) أحمد صالح محمود عبد ربه، شاعر الرافدين بدر شاكر السياب، رسالة علمية لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، 1299هـ، ص 100.

إن عالم المدينة هو عالم الغاب والقهر والطغيان أنها "وجر" الذئاب وعش الغراب، أنها عمياء في وضح النهار وأن ضحاياها موتى بلا قبور.[1]

لقد كان السياب يحس بالاختناق في جو المدينة المسموم بالحقد والكراهية والظلم واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، مما يدفعه للهروب بروحه وفكره إلى "جيكور" رمز الطهارة والمحبة:

وجيكور خضراء مس الأصيل درى النخيل فيها

بشمس حزينة

يد الكرى لي طريق إليها

من القلب يمتد عبر الدهاليز، عبر الرحى والقلاع الحصينة.

لقد كانت جيكور بمثابة الرئة الوحيدة التي يتنفس من خلالها الشاعر، والنافذة الوحيدة التي يطل من خلالها على مساحة الحياة الإنسانية. أما مدينة "بابل" فقد كانت مصدر شقائه وأحزانه، يسيطر الجشع وحب المال على النفوس المريضة حتى تحولت إلى سجن مظلم ومبغى يزخر بالفساد والمحن:

وقد نام في بابل الراقصون

ونام الحديد الذي يحشدونه

حصاد المجاعات في حنيتها رحى من لضى مروا بي عليها

وكرم مساليجه العاقرات، سراشين تموز

عبر المدينة

(1) المرجع نفسه، ص 300.

شراسين في كل دار وسجن ومنفى

وسجن وبار وفي كل ملهى

وفي كل مستشفيات المجانين.[1]

المدينة في عالم السياب جزء ميت لا ينبض بالحيوية فبغداد:

بغداد؟ مبغى كبير

بغداد كابو س ردًى فاسد

يجرعه الراقد

ساعاته الأيام، أيامه الأعوام، والعام نير:

العام جرح ناغر في الضمير.

لقد رأى السياب في المدينة وحشا كاسرا، رآها بلا قلب، وقد عبر عن إحساسه هذا في قصيدته "أم اليروم" التي عبرت عن استيائه الشديد من سطوة المدينة كم كان لها من جناية على تلك المقبرة:

ولكن لم أرى الأموات يطردهن حفار

من الحفر العتاق، وينزع الأكفان عنا أو يغطيها

ولكن لم أر الأموات قبل تراك يجليها

مجون مدينة، وغناء راقصة ، وخمار

(1) المرجع نفسه، ص 302.

فهو يرى أن المدينة مسرح للموت، مما أقلقه زمنا فكانت نتيجة ذلك أنه صار ضحية من ضحاياها.[1]

جيكور بالنسبة له خلاصه لم تفارقه في كل منعطفات حياته، لقد كانت دروة سعيه أن يتوب العراق إلى طهرها ووداعتها، ويجنّد طاقاته لحماية جمالها من الحرمان والجوع والفقر، لأنها حاجات ضرورية إن لحّت أو استفحلت آفاقها لولّدت البغاء والخيانة والعمر، وربما كان السياب يجد في فقرها جمالا يوم كان المال عنده يمثل الخيانة والبغاء، فظهرت جيكور في فقرها وأن جمالها في هذا الطهر، وجيكور في هذا كله حصن الشاعر ضد الموت وهو يعانيه قلقا ميثافيزيقيا في دواوينه الثلاثة الأخيرة، تلهمه طبيعته البريئة طهارة وصحة يتغلب بها على المرض، وتشدّه ذكريات الحب فيها فيأنس بها في وحشته وعزلته، ويصفعه العالم المعاصر فيتخذها موقفا له من الحضارة بل موقفا أيضا من الوجود، فكأنه نبيها تهمس في أذنه صوت الريح في السعف وكركرة المساء على الحجارة "بويب" وتلون لعينيه رؤى المدينة البهيمة، ينشدها وكأنه صوت صارخ: توبوا إلى جيكور إلى وداعتها، إلى براءتها، يندج عراقكم.[2] فبدر شاكر السياب أحب جيكور على عكس المدينة وتفاعل معها لدرجة الحب والعشق والتصوف اللانهائي.

(1) عيسى سلمان درويش، الموت في شعر السياب ونازك الملائكة، دراسة مقارنة، رسالة علمية لنيل درجة الماجستير في آداب اللغة العربية، كلية التربية في جامعة بابل (سنتة)، ص 132.

(2) أمل دبير، الالتزام في شعر بدر شاكر السياب، بيروت، لبنان، 1982، ص 229.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: دراسة فنية لقصيدة مدينة بلا مطر

قصيدة مدينة بلا مطر

1-دراسة تحليلية للقصيدة

2- التوظيف الرمزي والأسطوري في القصيدة

أ- الرمز

ب- الاسطورة

3-اللغة الشعرية

4-الصورة الشعرية

5-الموسيقى الشعرية

أ- الموسيقى الداخلية

ب- الموسيقى الخارجية

6-الجوانب الفنية للقصيدة

أ- الافكار

ب- العاطفة

ج- الألفاظ

د- الأساليب

هـ- النمط

قصيدة مدينة بلا مطر لبدر شاكر السياب

مدينتنا تؤرّق ليلها نار بلا لهب
تحمّ دروبها و الدّور ثم تزول حمّاها
و يصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب
فتوشك أن تطير شرارة و يهب موتاها
صحا من نومه الطينيّ تحت عرائش العنب
صحا تموز عاد لبابل الخضراء يرعاها
و توشك أن تدق طبول بابل ثم يغشاها
صفير الريح في أبراجها و أنين مرضاها
و في غرفات عشتار
تظل مجامر الفخار خاوية بلا نار
و يرتفع الدعاء كأن كل حناجر القصب
من المستنقعات تصيح
لاهثة من التعب
تؤوب ألهة الدم خبز بابل شمس آذار
و نحن نهيم كالغرباء من دار إلى دار
لنسأل عن هداياها
جياع نحن و أسفاه فارغتان كفّاها
و قاسيتان عيناها
و باردتان كالذهب
سحائب مرعدات مبرقات دون إمطار
قضينا العام بعد العام بعد العام نرعاها
وريح تشبه الإعصار لا مرّت كإعصار
و لا هدأت ننام و نستفيق و نحن نخشاها
فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمة
عيونكم الحجار نحسّها تنداح في العتمة

لترجمنا بلا نقمة

تدور كأنهن رحى بطيئات تلوك جفوننا

حتى ألفناها

عيونكم الحجار كأنّها لبنات أسوار

بأيدينا بما لا تفعل الأيدي بنيناها

عذارانا حزاني ذاهلات حول عشتار

يغيض الماء شيئا بعد شيء من محيّاها

و غصنا بعد غصن تذبل الكرمة

بطيء موتنا المنسلّ بين النور و الظلمة

له الويلات من أسد نكابد شدقه الأدرد

أنار البرق في عينيه أم من شعلة المعبد

أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار

أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود

هنالك حيث يحمل كل عام جرحة الناريّ

جرح العالم الدوار فاديه

و منقذه الذي في كل عام من هناك يعود بالأزهار

و الأمطار تجرحنا يداه لنستفيق على أياديه

و لكن مرّت الأعوام كثرا ما حسبناها

بلا مطر و لو قطرة

و لا زهر و لو زهرة

بلا ثمر كأنّ نخيلنا الجرداء أنصاب أقمناها

لنذبل تحتها و نموت

سيدنا جفانا آه يا قبره

أما في قاعك الطيني من جرّة

أما فيها بقايا من دماء الرب أو بذره

حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها

سرقنا من بيوت النمل من أجرانها دخنا و شوفانا

و أوشابا زرعناها

فوفّينا و ما وفى لنا نذره

و سار صغار بابل يحملون سلال صبّار

و فاكهة من الفخّار قربانا لعشتار

و يشعل خاطف البرق

بظل من ظلال الماء و الخضراء و النار

و جوههم المدوّرة الصغيرة و هي تستسقي

فيوشك أن يفتّح و هي تومض حقل نوار

ورفّ كأنّ ألف فراشة نثرت على الأفق

نشيدهم الصغير

قبور إخوتنا تنادينا

و تبحث عنك أيدينا

لأن الخوف ملء قلوبنا و رياح آذار

تهز مهودنا فنخاف و الأصوات تدعونا

جياع نحن مرتجفون في الظلمة

و نبحث عن يد في الليل تطعمنا تغطّينا

نشد عيوننا المتلفقات بزندها العاري

و نبحث عنك في الظلماء عن ثديين عن حلمة

فيا من صدرها الأفق الكبير و ثديها الغيمة

سمعت نشيجنا و رأيت كيف نومت فاسقينا

نموت و أنت واأسفاه قاسية بلا رحمة

فيا آباءنا من يفتدينا من سيحيينا

و من سيمةت يولم لحمه فينا

و أبرقت السماء كأن زنبقة من النار

تفتح فوق بابل نفسها و أضاء وادينا

و غلغل في قرارة أرضنا

وهج فعرّاها

بكل بذورها وجذورها وبكل موتاها
وسحّ وراء مارفعته بابل حول حماها
وحول ترابها الظمآن من عمد وأسوار
سحاب لولا هذه الأسوار رواها
وفي أبد من الإصغاء بين الرعد والرعد
سمعنا لاحفيف النخل تحت العارض السحّاح
أو ماوشوشته الريح حيث ابتلت الأدواح
ولكن خفقة الأقدام والأيدي
وكركرة وآه صغيرة قبضت بيمناها
على قمر يرفرف كالفراشة ، أو على نجمة
على هبة من الغيم
على رعشات ماء قطرت همست بها نسمة
لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها

1- دراسة تحليلية: قصيدة "مدينة بلا مطر"

إن قصيدة "مدينة بلا مطر" تحمل طابع النبوءة الصادقة بانطلاق ثورة تدك معاقل الحكم الملكي البغيض في العراق، وقد كانت نبوءة صادقة لأنها لم تنطلق من الإيمان بالغيبيات والقوى الخفية التي ستأتي كي تنتصر للحق على الأرض، وإنما انبعثت تلك النبوءة من خلال إحساس الشاعر الفردي وإحساس الشعب العراقي إحساسا جماعيا بأن المعاناة التي يرزح تحتها لن تستمر طويلا، لأنه لابد لليل الجور والعسف أن يزول مهما يطل العهد به.[1]

استهل بدر شاكر السياب "مدينة بلا مطر" بمقدمة صور فيها مشهد العقم والجفاف نتيجة غياب تموز عن الأرض، وبين –من خلال الصور الشعرية الموحية– أن توقع الناس لميلاد تموز من جديد جعلهم يبدون مرتاحين مستبشرين بالخصب الذي سيهل على الأرض من حولهم، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى أحزانهم، لأنهم وجدوا الريح تصفر في أبراج بابل ولا شيء غير الريح، ولأنهم وجدوا غرفات عشتروت خاوية بلا نار، ولأنهم –وهذا هو المهم– وجدوا أنفسهم يسيرون كالغرباء ويشكون الجوع، فضلا عن أن العذارى حبسن حزانى حول عشتروت، وأخذت الكروم تذبل دون أن يجود عليها المطر بقطرات ولو شحيحة، وبسبب الجوع اضطر الناس أن يأكلوا من النذور التي كانوا يريدون تقديمها لتموز... ومرت الأعوام.... ولكن..... كيف مرت؟ !.... إنها مرت:

بلا مطر.... ولو قطرة

ولا زهر.... ولو زهرة

بلا نهر –كأن تخيلنا الجرداء أنصاب أقمانها

لنذبل تحتها ونموت

(1) حسن توفيق، شعر بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية،ط2 دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009،ص213.

سيدنا جفانا آه يا قبره

أما في قاعك الطيني من جرة؟

أما فيها بقايا من دماء الرب... أو بذرة؟

حدائقه الصغيرة أمس جعنا فاقتر سناها

سرقنا من بيوت النمل، من أجرانها دخنا وشوفان وأوشابا زرعناها.

فوفينا –وما وفى لنا– قدره ! [1]

فإذا كان المطر رمز للانتعاش للخصوبة وللحياة، ومدينة بلا مطر، رمز للقفر، رمز لعدم وجود الحياة، رمز لصعوبة العيش، رمز للجفاف والقساوة، وهذا ما عبر عنه الشاعر بدر شاكر السياب فهو يرى الحياة صعبة ومملة وقاسية في المدينة، ضف إلى هذا عدم وجود الرحمة بين أهلها لأنهم لا يعرفون بعضهم البعض على عكس القرية "جيكور الصغيرة" فأهلها يعرفون بعضهم البعض جيدا، الشيء الذي يجعل العلاقة وطيدة بين أهلها.

الشاعر يرى نفسه غريبا في المدينة فالكل يرشقه بنظرات كالحجارة، فهو جائع، خائف، غير قادر على الانسجام والتأقلم في هذه المدينة المدمرة القاسية، فهي تفتقد للحياة قلبا وقالبا، وذلك بغياب الإيمان والروح الطاهرة، لأن الله ليس في قلوب أبناء المدينة لأنها اتخذت لها ربا آخر، إنه المال، فهي تسبح له في ظلماء، فكل شيء فيها مستكره، بارد، جاف، والإنسان فيها أصبح "ذا مخالب" ليقتل غيره من البشر، إنه التوحش.

كما يصور لنا الشاعر المدينة كالمرأة، وهو يعود على العفة وحياء المرأة في القرية، على عكس المرأة في المدينة التي انتشر فيها الفسق والمنكرات، وبذلك يقارن ويوازن بين

(1) المرجع السابق، ص 214.

المرأة في القرية بما هي رمز الطهارة والعفة، مقابل المرأة في المدينة، رمز للفسق وارتكاب المعاصي وذلك حال المدينة بعدما تخلى عنها "تموز إله الخصب فحل بها الجفاف.

أما "جيكور" فهي رمز الحب والدفء والحياة والإخلاص، فهي التي خلقت منه شاعرا، وهي التربة التي يرى أن دفئه سيكون فيها "لم عظامه" فهي تجمعه بعد تبعثر، وتغسل قلبه بعد أن كان "نارا"، فهو بحاجة إلى الراحة والاغتسال بعد سنين العمل الملتهبة بالعطاء والفكر والعذاب، إنها الجنة التي يعرف، ونبع الروح الذي جعله يعرف "وجه الله"، بل لولاها ما عرف "وجه الله"، "وجيكور هي نبع يسيل في بال الشاعر وهي العالم الذي يسحبه إلى الأحلام.

يستغل الشاعر في هذه القصيدة تقنية الفضاء البصري، ليعزز معنى الفناء والاندثار والانتهاء، فجاءت صيحة تلك الحناجر على غير العادة لاهثة من التعب، سرعان ما تدوي، ونلمس في إفراد الشاعر بعبارة لاهثة من التعب في قوله:

ويرتفع الدّعاء كأن كل خناجر القصب

من المستنقعات تصيح

لاهثة من التعب

هذا يدل دلالة واضحة على معنى الموت والمواراة تحت الثرى، ولا يخفي الشاعر تدمره وضيقه من أولئك الأرباب الذين صادروا خيرات هذه المدينة حتى آلت إلى تلك الحال، بل واستحالت عيونهم القاسية رقباء تنظر بغير رحمة:

تدور كأنهن رحى بطيئات تلوك جفوننا

حتى ألفناها

عيونكم الحجار كأنها لبنات أسوار

فجاء التعبير عن ألف تلك العيون والأنس بها ديل سطر آخر ينبئ بالمصير المحتم لمن يرضخ لواقعه، ولا ينهض لتغيره والتمرد عليه، وإذا اطلعنا على طيات هذه القصيدة نجد أن الصورة التي شكلها الشاعر لهذه المدينة هي صورة أسطورية ذلك أن قدرته على إثارة الإحساس بالغربة والرعب إنما توحي للقارئ بأن هذه المدينة تنتمي إلى عالم الأساطير، وليس ادعاء الواقع، فالمشاهد الواقعية تبدو لنا أسطورية لأنها ترتبط في مخيلتنا بالعديد من الصور لتلك المدن المحترقة ذوات الأبراج والأسوار التي مر عليها عربات الفاتحين لتشعل فيها الحريق.

وهذه المدينة التي تجثم عليها النار هي "بابل" المدمّرة التي تعاني الوحشة لأن تموز إله الخصب والحب ميت ومدفون فيها، وإن بغداد الكالحة التي تنتظر المطر، وفجر الثورة، غير أن تموز، أوشك أن يصحو من نومه، ليعود إلى مدينته الخضراء بقوله:

وتوشك أن تدق طبول بابل[1]

وهذا إيذانا بالبقاء وبمقدم المطر لكن مانعا يمنع ذلك، ولذا تظل المدينة ميتة، وهنا نجد السياب يسترسل في وصف المدينة حيث تبرز قذارته الفنية وتميزه الشعري.

من خلال شحن الأبيات بكل ما يوحي بالأجواء الأسطورية في قوله:

وتوشك أن تدق طبول بابل ثم يغشاها

صفير الريح في أبراجها وأنين مرضاها

وفي غرفات عشتار

تظل مجامر الفخار خاوية بل نار

(1) د. إيمان "محمد أمين" الكيلاني، بدر شاكر السياب، دراسة أسلوبية لشعره، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2008، ص 210، 211.

ولم يكن محض صدفة أن ترد في أبيات السياب هذه المفردات التي تشير إلى عالم الأساطير "أبراجها" "تدق طبول" "مجامر الفخار" "غرفات عشتار" إنما هي الوعي باللغة المناسبة المنسجمة مع الجو الأسطوري الذي يلف القصيدة بشكل عام، ولا يقف السياب في خلق الأجواء الأسطورية عند حد التوطئة لأسطورة ما، بل يخلقها لذاتها مستحضرا من الذاكرة صورا قديمة ذات عمق وعبق نفسيين لديه.

إن المدينة التي رآها السياب هي حالة عقم متخيلة تعيشها الأرض بالإيحاء لما حل فيها في أيامها الراهنة، والملاحظ هنا هو تكرار البنية بتجليات ومظاهر متنوعة تختلف درجة احتوائها على العقم أولا وإن كانت لا تخرج عن المطر والنار في المقام الأول، كم أنها تنفرد بميزة انطوائها على مقومات الحمل والعطاء، فثمة سحب به مطر، رغم أنها تملك مقدمات الأمطار ولوازمه مثل الرعد والبرق فكأن السياب يؤكد بذلك ما ينفي العقم والجدب كامنا ممتنعا لأسباب تخفيها رمزية النص و توحي به إيحاء.

لكن المعاناة الطويلة والقاسية تتبدد، عندما يسير أطفال بابل –رمز الجيل الذي ستتحقق الثورة على أياديه– فتستجيب السماء لضراعاتهم التي توشحت بالحنق على الآلهة ذاتها، ومن خلال حركة الحياة الجديدة التي نتبينها في خاتمة القصيدة متمثلة في غلغل في قرارة الأرض من وهج وفي خفقة الأقدام والأيدي ، يتأكد لنا أن بابل كانت خاطئة ولكنها ستغسل من خطاياها:

وسح وراء ما رفعته بابل حول حماها

وحول ترابها الظمآن، من عمد وأسوار

سحاب كان لولا هذه الأسوار رواها

وفي أبد من الإصغاء بين الرعد والرعد

سمعنا لا حفيف النخل تحت العارض السحاح

أو ما وشوشته الريح حيث ابتلت الأدواح

ولكن خفقة الأقدام والأيدي

وكررة وآه صغيرة قبضت بيمناها

على قمر يرفرف كالفراشة، أو على نجمة

على هبة من الغيمة

على رعيشات مـــاء، قطرات همست بها نسمة لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها.[1]

وهكذا انتهت القصيدة بوعد أو حلم يوازن المهمة الفنية والنزوع المعنوي، وهكذا مضى النص بين الوصفي والسردي والإيديولوجي والشعري، في إطار أسطوري أو طقس جماعي يناسب خطط النص وهويته الأسطورية التي أنقدته من المباشرة والوقوع في خطاب سياسي عابر يرتبط بالحدث أو الظروف، وهو ما يتكفل السياق الأسطوري بإبعاده لصالح بناء فني يتجدد مع كل قراءة... هي في معنى المناسبة تتجدد بتجدد ذكرى غياب السياب.

(1) حسن توفيق، شعر بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط2، 2009ص215.

2- التوظيف الرمزي والأسطوري في قصيدة "قصيدة بلا مطر"

أ. الرمـــــز

لقد عد توظيف الرمز في القصيدة المعاصرة سمة مشتركة بين غالبية الشعراء على مستويات متفاوتة... وهكذا ومع أن الرمز في الأدب سمة أسلوبية وواحد من عناصر النص الأدبي الجوهرية منذ القدم إلا أننا نراه قد تنوع وتعمق وسيطر على لغة القصيدة الحديثة وتراكيبها وصورها وبنياتها المختلفة، والرمز بشتى صوره المجازية والبلاغية والإيحائية، تعميق للمعنى الشعري، و مصدر للإدهاش و التأثير و تجسيد لجماليات التشكيل الشعري، كما أنه يساهم في الارتقاء بشعرية القصيدة وعمق دلالتها وشدة تأثيرها في المتلقي، ولقد كان بدر شاكر السياب من بين الشعراء المعاصرين الذين وظفوا الرمز في جل قصائدهم، لما له من سمات جوهرية تزيد المعنى قوة، فالمتفحص لشعر بدر شاكر السياب يجده يحمل في طياته رموز كثيرة من بينها المطر حيث اقترن المطر في الشعر العربي المعاصر بالسياب وظل يركز على هذا الرمز الثري بالإيحاءات حتى نجح من كثرة الحاجة في أن يربط بين اسمه وبينه، فهو كما يراه يمثل الضدان الحياة والموت باعتباره رمزا يشير إلى الجانبين المتناقضين في العلاقة ويبلور الصراع بينهما، فهو يحمل في طياته دلالة مزدوجة على الموت والميلاد، والظلام والضياء، لذلك كان تأكيد السياب على إيراد رمز المطر بوصفه قرين البعث، وقد كان المطر حاضر في معظم قصائده، بما يحمله المطر من دلالات الخصب والحياة والنماء، فجاءت قصيدته تنبض بالحياة المرهونة بهطل المطر منها قوله:

بلا مطر... ولو قطرة

ب.الأسطورة

وظف السياب في القصيدة بعض الأساطير بما يخدم الرؤيا التي سعى إلى نقلها إلينا، وقد استثمر السياب أسطورتين مشهورتين، الأولى هي أسطورة تموز، والثانية هي أسطورة عشتار، وتموز وفق دلالته البابلية هو "الابن البار" أو الابن الذي يبعث من جديد، بقول السياب:

صحا من نومه الطيني تحت عرائش العنب

صحا تموز عاد لبابل الخضراء يرعاها

وتوشك أن تدق طبول بابل ثم يغشاها

وهذا ينسجم تماما مع الأمل الذي يحدو الشاعر بصحوة أبناء المدينة واستفاقتهم من سباتهم العميق ليبعثوا الحضارة والحياة من جديد في أرجاء مدينتهم المقفرة، يقول السياب أيضا:

وفي غرفات عشتار

تظل مجامر الفخار خاوية بلا نار

فالعودة إلى الزمان والمكان التاريخيين للأسطورة إلى بابل وآدار، نلمس في النص نزوعا نحو توظيف العطى الرمزي انطلاقا من العوامل الحضارية في العراق؛ غير أننا مع كل هذا نجد شيئا واحدا يخالف أجواء الأسطورة نسبيا هو عزل الحياة وتكريس الموت، حيث غلب هذا الأخير على مناخ القصيدة وظلت القصيدة في ذهاب وإياب لا انقطاع بين النص الأسطوري والأصلي ولا نعدم تمثلا رمزيا لجوانب حضارية تتمثل فيما يمكن أن نلاحظه في الاقتباسين الآتيين:

قال السياب:

سحائب مرعدات مبرقات دون أمطار

قضينا العام بعد العام نرعاها

وريح تشبه الإعصار لا مرت كإعصار

فجل هذه الألفاظ تحيل إلى الخيبة التي لا مجيب عنها على الرغم من محاولات صناعة الحياة وبعثها، ويمكن إسقاطها على اليوم الذي كتب في أثناءه النص، إذ إن انتفاضات الشعب من أجل تغيير حياته، إنما هي انتفاضات عقيمة لا تؤدي إلى أي تغيير على الرغم من توافر شروط التغيير، فالإقتباسان يخالفان جو الأسطورة، إذ الأسطورة تحتفي يتموز الذي يبعث في آذار من كل عام، أما النص فهو وإن احتفى بتموز كما هو جو الأسطورة فقد جعل بعثه منتظرا لأعوام متتالية، دونما أن يطل على الأرض، فالسحائب وإن أرعدت وأبرقت فإنها تبقى دون مطر، والريح وإن شبهت الإعصار فهي ليست بإعصار لأنها لا تغير من الأمر شيئا.

وفي الاقتباس الثاني تحضر الإشارة إلى الأسطورة حيث يحضر تموز يقول السياب:

هنالك حيث يحمل كل عام جرحة الناري

جرح العالم الدوار فاديه

ومنقذه الذي في كل عام من هناك يعود بالأزهار

ولكن مناخ القصيدة غير معني بهذا الاحتفاء بتموز لذا يكسر نمط الأسطورة من خلال تكريس الجذب وإزاحة الخصب الموعود يقول:

ولكن مرت الأعوام كثرا ما حسبناها

وهكذا تظل الحاجة ملحة إلى التغيير.

3- اللغة الشعرية:

اللغة هي التي يتواصل بها الناس فيما بينهم، فكل واحد منهم يعبر عما يختلج بداخله بعبارات وألفاظ وتراكيب، وكل هذه تمثل اللغة، كما أن لكل واحد منا طريقته في صياغة هذه اللغة، فالأدباء لهم طريقتهم الخاصة في التعبير عن أفكارهم، وهي تختلف من أديب إلى آخر، فالشاعر يستعمل اللغة لينقل لنا تجربته ويصور حالته بها، وهذه الحالة لا نعلمها نحن من قبل، فاللغة هي "نظام من الرموز متكامل يعطي دلالات ذات معنى في التواصل بين الكائنات الحية، وهذه الرموز تتمثل في اللغة التي يتعامل بها الإنسان، والتي تعد أكثر تركيبا وتعقيدا"[1]. والشيء نفسه ينطبق على الشاعر، فلغته "تتألف من خلال الكلمات في تركيبه جمالية ذات طاقة انفعالية"[2]. وبالتالي فقد أصبحت اللغة نقطة اهتمام في الإبداع الأدبي، لقد حاول رواد الشعر العربي الحر أن يجددوا الشعر من خلال تجديد لغتهم، وأرادوا أن يجددوا لغتهم من خلال احتكاكهم بالحياة الجديدة، "فاللغة هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح الأبواب والجناح الناعم الذي ينقلنا في شتى الآفاق فقد عرف الإنسان العالم لأول مرة عندما عرف اللغة"، ولغة العصر الحديث تختلف عن لغة عصر مضى وذلك من خلال علاقتها بالظروف المعيشة وتقف هنا عند الشاعر "بدر شاكر السياب" فلغته تعبر بصدق عن تجربته في الحياة والظروف التي عاشها كما تعبر أيضا عن نفسيته الحزينة القلقة فجاءت لغة قصائده ذات بيانات حزينة وقاتمة، فجاءت قصيدة "مدينة بلا مطر" موحية تدل دلالة واضحة على موضوعها حيث كانت اللغة فيها على قدر كبير من الغنى والاكتناز، فلغته بسيطة تتميز بالوضوح، فلدى الشاعر قدرة نادرة على شحن العبارة.

(1) عكاشة محمود: علم اللغة _ مدخل نظري في اللغة العربية – دار النشر للجامعات، القاهرة 2006، ص 18.
(2) الغدامي عبد الله كيف تتذوق قصيدة حديثة مجلة فصول م4 ع4 1984 الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ص97

4- الصورة الشعرية:

لقد استطاعت الصورة الشعرية أن تكتسب ابعادا موضوعية جديدة، ولو ان القارئ تجاوز قضية الخطيئة "البغاء" بمعناها الشخصي الضيق ودلف منها إلى الموضوع الأكثر شمولا لأدرك أن تأكيد السياب على ضرورة التطهر بالدم إنما هو إشارة إلى الواقع الاجتماعي الأسود المرير الذي كان يحياه العراق في سنوات ما قبل ثورة "تموز" ذلك (الواقع) الذي لا يمكن أن يتطهر إلا بالدم أيضا[1] دلالة عن وجوب القيام بثورة تعصف بالظلم والطغيان.

ويبدو قول المعري:

سحائب مبرقات ومرعدات لمهجة كل حي موعدات

مصدرا للصورة الشعرية التي وردت في قصيدة السياب "مدينة بلا مطر" وربما عمد الشاعر إليه ونقله نقلا يوشك أن يكون تاما:

جياع نحن وآسفاه، أفارغتان كفاها

وقاسيتان عيناها، وباردتان كالذهب

سحائب مرعدات مبرقات دون إعصار

قضينا العام بعد العام نرعاها

وريح تشبه الإعصار لا مرت كإعصار ولا هدأت.

غير أن الصورة الشعرية القديمة تحولت هنا بفعل تراكم الصور من حولها إلى نسيج سيابي خالص، بعد أن أضاف إليها الشاعر "دون إمطار" وهذه الإضافة بالغة الأهمية نأت بالصورة القديمة عن معناها الذي وردت فيه وتحولت بفعل رؤية الشاعر المعاصر إلى جملة

(1) د. إيمان "محمد أمين" الكيلاني، بدر شاكر السياب، دراسة أسلوبية لشعره، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن – عمان ط1، 2008، ص227-228.

وكأنها انبثقت عن الموقف الشعري الذي تتوالى فيه الصورة لتؤكد حلة الجدب واليباب والإحساس المتألم بالخيبة، ذلك أن هذه السحب ذات البروق والرعد ليست سحبا حقيقية، هي سحب كاذبة، لأنها خالية من المطر الذي يعيد الخصب والحياة لمدينة بابل المحترقة، وشعبها الجائع وغن كان المعري يعبر عن لهفة كل حي لما تَعِدُ به السحب من المطر والخصب وهو ينتظرها لأن السياب يائس منهن لأنهن يعدن وينتهين بلا مطر، وليست هذه المرة الأولى فقد ظل يتأمل عاما بعد عام، بعد عام، وهو تكرار يشير إلى طول الانتظار واليأس من تحقيق المأمول.

5- الموسيقى الشعرية

أ. الموسيقى الداخلية:

في السطر الأول من قصيدة "مدينة بلا مطر" – مدينتنا تؤرق ليلها نارٌ بلا لهب.

– شبه الشاعر المدينة بالإنسان فحذف المشبه (الإنسان) وأبقى على قرينه من قرائنه (تؤرق) على سبيل الاستعارة المكنية. كما لجا إلى الكناية في السطر الثاني: وهي كناية عن العقم فالنار موجودة، واللهب غير موجود/ كما أن هناك كناية عن صفة في قوله: تحم دروبها والدور، كما وظف الكناية في قوله: يهب موتاها، كناية عن كثرة الصخب في ليل المدينة.
– كما شبه شهر (تموز) وهو إله الخصب بالإنسان، فحذف المشبه به وأبقى على قرينه من قرائنه على سبيل الاستعارة المكنية.

– يصور الشاعر الحياة في شهر (تموز) أي جويلية فيعود خيبة إلى عرائش العنب وبساطة العيش، وكذلك هناك كناية في قوله عاد لبابل الخضراء يرعاها، كناية عن موصوف وهو العراق. ووظف التشبيه في قوله "تهيم كالغرباء من دار إلى دار". وقوله: وفارغتان كفاها، قاسيتان عيناها، كناية عن سوء المعاملة في المدينة، لأنها تعود على بساطة القرية، وجيكور والعلاقة الجيدة التي تربط أهلها.

– كما يرى صعوبة العيش في المدينة الشيء الذي جعله يشعر بالخوف الدائم، فيشبه ريحها بالإعصار.

– فينام ويستفاق: طباق إيجاب. فالسياب يشعر بالخوف في المدينة لأنها قاسية بلا رحمة.

وفي قوله: عيونكم الحجار نحسها تتداح في العتمة.

– شبه العين بالحجر الذي يحدث خدوشا في الظلام، هذه النظرة التي فيها احتقار للآخر.

وفي قوله: عيونكم الحجار كأنها لبنات أسوار، شبه العيون بالحجارة فهي ترشق كل من تراه ولهذا نجد الشاعر يعبر عن اغترابه، وعدم قدرته على التاقلم والانسجام والعيش في المدينة.

* يتحدث الشاعر في قوله: عذارانا حزاني ذاهلات حول عشتار، فنجده يعبر عن افتخار هذه المدينة للقيم والأخلاق الإنسانية، فهي غائبة تماما

* كما وظف الطباق في قوله: بطيء موتنا المنسل بين النور والظلمة، فهو طباق إيجاب: النور ≠ الظلمة.

* كما شبه المدينة بالأسد المنزوع الأسنان في قوله: له الويلات من أسد نكابد شدقه الأدرد حيث شبه المدينة بالأسد فحذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الإستعارة التصريحية ليعبر عن صعوبة العيش في هذه المدينة الجافة.

* ويعبر عن صعوبة العيش في المدينة لأنها جافة بلا مطر ولا خصب، وهذا يعني أنها تفتقد لبعض عناصر الحياة فهي قاسية بلا رحمة في قوله:

بلا مطر.... بلا قطرة

ولا زهر .... ولو زهرة

* كما يوظف التشبيه في قوله: بلا ثمر كان نخيلها الجرداء أنصاب أقمناها.

* الكناية في قوله: قبور إخواننا تنادينا فهي كناية عن الخوف فالشاعر خائف من هذه المدينة المليئة بالوحوش والقلوب المتحجرة والأنياب المكشرة.

* الكناية في قوله: وتبحث عن يد في الليل تطعمنا تغطينا، فهي كناية عن الخوف والبرد والجوع لأن الشاعر يحس في هذه المدينة بالبرد واللاأمن وعدم الاستقرار فهو ضائع في شوارعها.

* كما يصور الشاعر المدينة كالمرأة لها زند ولها ثدي في قوله: نشيد عيوننا المتلفقات بزندها العاري ونبحث عنك في الظلماء عن ثديين عن حلمة، فالسياب هنا يصور لنا الفسق المنتشر في المدينة لأن المرأة أصبحت تبيع جسدها من أجل العيش الرغيد ومن أجل جمع المال، فهو هنا يقارن بين المرأة الريفية والمرأة "المدنية"

* في قوله: نموت وأنت وآسفاه قاسية بلا رحمة، استعارة مكنية (شبه المدينة بالمرأة) حذف المشبه وأبقى على قرينه وهي (القسوة وعدم الرحمة).

استخدم السياب تموز البابلية آلهة الخصب التي تخلت عن المدينة فجف فيها كل شيء، إذ لا مطر ولا زرع فانتشر فيها الجوع والجفاف، فبدأ أهل القرية بالتضرع إلى آلهة الخصب وإلى تموز وحبيبته عشتار، وذلك في قوله:

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار

وفاكهة من الفخار قربانا لعشتار

وهذا يعكس الواقع اللاإنساني الذي لا يرحم الأطفال الصغار الأبرياء. وهنا يختم الشاعر قصيدته بالتفاؤل من بعد القحط والجفاف والجوع والخوف، فمدينتنا بلا مطر ولا زهر ولا ثمر ولا خصب، تنتهي بحلم لطالما حلم به بدر شاكر السياب وأراده أن يتحقق وذلك في قوله:

وأبرقت السماء كأنها زنبقة من نار

تفتح فوق بابل نفسها وأضاء وادينا.

* كما نجد الشاعر هنا يشبه البرق بالنار لأن كليهما يلمع ويحدث شرارة، وهذا المطر هو مطر الخصب والعطاء والنماء والطهر الذي تغتسل به بابل من خطاياها وذلك في قوله:

على رعشات ماء قطرت

همست بها نسمة

لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها.

ب. الموسيقى الخارجية:

يقول بدر شاكر في قصيدته:

مَدِيْنَتُنَاْ تُؤَرِّقُ لَيْلَهَاْ نَاْرٌ بْلاَ لَهَبْ

مَدِيْنَتُنَاْ تُؤَرِّقُ لَيْلَهَاْ نَاْرُنْ بِلاَ لَهَبْ

0//0// ~0/0/0// ~0///0//~0///0//

مُفَاْعَلَتُنْ ~ مُفَاْعَلَتُنْ ~ مُفَاْعَلَتُنْ ~ مَفَاْعِلُنْ

* نظم الشاعر قصيدته على بحر الوافر الذي مفتاحه: بحور الشعر وافرها جميل مُفَاْعَلَتُنْ مُفَاْعَلَتُنْ مُفَاْعَلَتُنْ وهذا البحر بإيقاعه الغنائي جعل النص يشبه ترتيلة محمولة على التضرع للآلهة عشتار مشبعة بالخوف المقرون برغبة عارمة للحياة، وإن بدا الموت هو الذي يموج على سطحها.

ولقد جاءت قوافي القصيدة تحيل إلى تكريس إيقاع يدل على الضعف والموت حيث اشتركت كل من الهاء والراء في خلق هذا الإيقاع وهي إما تأتي بصيغة "اها" وهي هنا تحيل إلى الألم، والهات المترددة في مقاطع القصيدة يوصفها شكوى وتوجع.

6- الجوانب الفنية للقصيدة

أ.الأفكـــار:

أفكار القصيدة مترابطة، وقد أبرز الشاعر أفكاره من خلال التشخيص والتجسيم والرمز فلم يعبر عنها صراحة ولكن ضمنا حيث نجده يبدا القصيدة بتصوير مدينة بابل التي هي العراق والحياة القاسية التي يعاينها الشاعر في هذه المدينة الجافة القاحلة، وينطلق من الأرق الذي يصيب العراق.

ب. العاطفـــــة:

عاطفة الشاعر في هذه القصيدة إنسانية صادقة فهو يقارن ويصف لنا حال المدينة التي تخلت عن كل مبادئها وقيمها، ويصفها بانها مدينة بلا مطر ولا زهر ولا خصب، فهي قاسية جارحة لا رحمة فيها على عكس جيكور التي تعد المرفأ والاستقرار والطمانينة.

ج.الألفـــاظ:

استخدم الشاعر الألفاظ السهلة الواضحة الموحية فجاءت ملائمة للموضوع، وقد استخدم الشاعر الرمز للتعبير عما يريد دون خوف فمثلا: المطر هو رمز الخصب والنماء، وتموز هو إله الخصب وهو حبيب عشتار، وعشتار هي آلهة الجنس والحب والجمال.

د.الأساليب:

تنوعت الأساليب في القصيدة يبين الخبرية والإنشائية التي توحي بحب الشاعر وميوله إلى بلدته" جيكور" وكرهه للمدينة التي يعتبرها وكرا للذئاب البشرية وأصحاب النفوذ. ولقد غلب على القصيدة "مدينة بلا مطر" للسياب الأساليب الخبرية في قوله:

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب

تحم دروبها والدور ثم نزول حمَّاها

ويصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب

وأما الأسلوب الإنشائي فكان ناذرا إذ بالكاد نجده كالنداء في قوله:

فيا أربابنا المتطلعين بغير رحمة

هنا الشاعر يصور لنا الحياة في المدينة وسيطرة الطبقة البرجوازية أصحاب المال والنفوذ وقوله: فيا من صدرها الأفق الكبير وثديها الغيمة، وهذا بغرض التعجب.

*والاستفهام في قوله:

أفي عينيه مبخرتان

أو حزنا لعشتار

وأيضا: أما في قاعك الطيني من جرة

أما فيها بقايا من دماء الرب أو بدرة.

هـ.النمـــط:

غلب على القصيدة "مدينة بلا مطر" النمط الوصفي في قوله:

سحائب مرعدات مبرقات دون إمطار

وريح تشبه الإعصار لا مرت كإعصار

ولا هدأت تنام ونستفيق ونحن نخشاها...

لأن الشاعر بصدد وصف المدينة ووصف حالتها وعدم قدرته على التأقلم معها، كما يصف مدينته التي أصابها الجفاف.

الخـــاتمـــة

خـــاتمـــة

شكلت المدينة هاجسا قائما شغل الشعراء المعاصرين ولا يزال، وقد أخذ حضور المدينة يتعدد على أنحاء مختلفة وأصبحت عنصرا مكافئا لما يقابلها من أشياء معنوية أو مادية محسوسة وتأسيسا عن هذا البحث الذي قمنا به تحت عنوان"تجليات المدينة في شعر بدر شاكر السياب" خلصنا إلى النتائج الآتية:

1/ اصطدام عديد الشعراء بواقع المدينة الذي يجور بالتناقضات التي جعلت القيم تنسحب لتحل محلها علاقات جديدة قائمة على المصلحة، لا على القيم الإنسانية.

2/ إن حالة بدر شاكر السياب كحال الشعراء المعاصرين له، وقد أحس بفرق شاسع بين قرينه جيكور وبغداد لذلك ظل الحنين ينازعه إلى قرينه، فلم يستطع أن يتقبل الحياة الجديدة، ضف إلى هذا أن المدينة بالنسبة للسياب لم تحل مشاكله فحسب، بل وبحكم ضخامتها فقد سمحت لهذه المشاكل في أن تبرز إلى الواقع بكل بشاعتها وقساوتها، فالشاعر يرى في هذه المدينة علة للمفاسد والإنحرافات الإجتماعية.

3/ رغم السنين التي قضاها السياب في المدينة، إلا أنه لم ستطع أن يؤلف شوارعها الضيقة والأسوار العالية، والبنايات المزخرفة.... وغيرها من مظاهر المدينة، فهي بالنسبة له تمثل الفضاعة والقبح، لأنه كان ضائعا كئيبا لا يرى في المدينة إلا أناسا تربطهم المصالح وهكذا بقي السياب متعلقا بقريته جيكور مثلما يتعلق الرضيع بأمه فهي مولد الروح والسخاء والثرى والندى، فبغداد على امتداد عمر الشاعر لم تستطع أن تمحو أو تطمس جيكور في نفسه، حتى يوم رجوعه إليها. لم يستطع بدر شاكر السياب أن يقصر نفسه على حب بغداد أو حتى يهدأ من صراعه معها فهو لم ينفصل عنها "جيكور" ففيها يحس بالالتئام مع جذوره لأن عظام أمه تحولت إلى حبات تنبت الأشجار.

4/ عبرت قصيدة "مدينة بلا مطر" لبدر شاكر السياب عن تحولات ذهنية وأدبية عكست على نحو ما نزوعا ذاتيا كان يرمي إلى العودة إلى الذات "القرية" لدى الشاعر ليحث توازنا نفسيا بعد حالة الاغتراب الذي أحس به في المدينة، ما أنتج لنا نصا إبداعيا متفردا هو غفراز لمرحلة زمنية معينة ولحالة نفسية أيضا.

ويبقى لنا في الأخير أن نسأل الله أن يكون هذا العمل المتواضع ثمرة خير على إخواننا الطلبة فينتفعون به.

قائمة
المصادر والمراجع

قائمـة المصـادر والمراجـع

- **المصادر:**

1. بدر شاكر السياب: الديوان مج1- 2، دار العودة، بيروت، 1986م.
2. صلاح عبد الصبور: الديوان، مج1-2، دار العودة، بيروتـ 1987م.
3. محمد ابراهيم أبوسنة: الأعمال الشعرية، مج 1، ط1، مكتب مدبولي، القاهرة، 1985م.

- **المراجع:**

4. ابراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجا (1925–1962)، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.
5. د. أنطونيس بطرس: بدر شاكر السياب، شاعر الوجع، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، دط، دن.
6. د. إيمان "محمد أمين" الكيلاني: بدر شاكر السياب، دراسة اسلوبية لشعره، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2008م.
7. الغدامى عبد الله: كيف تتذوق قصيدة حديثة، مجلة الفصول، مجموعة م4، ع4، 1984م، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة.
8. د بشير العسوي: دراسات في الأدب المعاصر، دار الفكر العربي، بيروت، 1998م.
9. حسن توفيق: شعر بدر شاكر السياب دراسة فنية وفكرية، ط2، دار اسامة للنشر والتوزيع، الاردن، عمان، 2009م.
10. حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث، دار الجيل للطباعة، بيروت لبنان، 2005.
11. رجاء محمد عبيد: مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الفكر العربي.

12. طه حسين: صوت أبي العلاء، مطبعة المعارف، القاهرة، 1944.
13. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، 1985م.
14. عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ج2، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة 1959م.
15. عكاشة محمود: علم اللغة مدخل نظري في اللغة العربية ، دار النشر للجامعات، القاهرة ، 2006م.
16. د. غالي شكري: شعرنا الحديث إلى أين؟ ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1978م.
17. ماهر حسن فهمي: الحنين والغربة في الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجيلاوي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، 1970م.
18. مختار علي أبو غالي: المدينة في الشعر العربي المعاصر، الكويت، 1995م.
19. مصطفى عبد الشافي: الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، دس.
20. يوسف شنوت: الزبيدي: موسوعة روائع، الشعر العربي، بدر شاكر السياب.

21. رسائل الماجستير والدكتوراه

22. أحمد صلاح محمود عبد ربه: شاعر الرافدين بدر شاكر السياب، رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، 1297–1299 هـ.
23. أمل دبير، الالتزام في شعر بدر شاكر السياب، رسالة علمية لنيل درجة الماجستير في الأدب، بيروت لبنان، 1982م.

24. عيسى سلمان درويش : الموت في شعر السياب ونازك الملائكة، دراسة مقارنة، رسالة علمية لنيل درجة الماجستير في أدب اللغى العربية، كلية التربية في جامعة بابل.

25. محمد شيراني: المدينة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، 198.